جفاف المشاعر

تأليف

أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي





بسم الله الرحمن الرحيم





دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

إنَّ الحمـدَ لله، نحمدُه ونستـعينُه ونستـغفرُه، ونعوذُ بالله مِن شُـرورِ أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، مَن يَهـده اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

أما بعـد.. عشت صبـاي ومطلع حيـاتي في قرية حالمة بين جـبلين تفتن النظر بجمالها وعظمـتها وتعاريجها وارتفاعهـا، وخضرتها واشتباك أشجـارها، في أعاليها يتعانق السحاب، وبينهما نهر يتدفق عبر شلالات كأنامل سارت على أوتار.

ومشاعر أهل القرية متدفقة تدفق المياه، جميلة جمال الطبيعة، بل هي أجمل أنها على الفطرة لم تدنسها روح المدنية.

عواطفـهم نبيلة، مروءتهم أصيلـة، مشاعرهم فـياضة، الوالد مطاع كأجـمل ما تكون الطاعة، والجـار محفوظ منيع من الضـيم، والعالم مبجل، والغـريب حبيب، والضيف رب المنزل، وعاقل القربة أب للجميع أن كان ثَمَّ سرور في بيتٍ كل البيوت في حبور، وإن حزن ففي كل بيت مثله، ولايزال هذا حال كثير من القرى.

ولما طاب لي المقام في المدينة وجـدت فيهـا كل شيء من مرافق الحياة إلا المشـاعر الدافئة فهي ملح الحياة بدونها تصبح الحياة بلا طعم، وجدت الحياة في المدينة كما قيل:

مـا أكـثـر النَّاس لا بَلْ مـا أقلَّهُم ۞ الله يـعـلـمُ أنِّـي لـم أقـل فـنـدا

إني لأفـتح عـيني حِـيْنَ أفـتحـهـا ۞ على كـثـيـر ولكنْ لا أرى أحـدا

والحال يتكرر فالعرب أهل البادية كانت لغاتهم على الفطرة فلمَّا اختلطوا بغيرهم من العجم تسربت العـجمة إليها فسارعـوا إلى حفظها بتقعيـدها وتأصيلها فكان لهم ذلكَ ونحن بحاجة إلى حفظ لغة المشاعر من الجفاف والتصحر.

وهذا الذي أروم إيضاحه وأقصد علاجه، وعـلاجه سهل يسير على من يسره الله عليه فإذا كان العرب قد حافظوا على لغاتهم بحفظ القرآن الكريم، فحفظ لغة المشاعر بالعمل به والتـخلق بأخلاقـه والاهتداء بهدي مـحمد ﷺ ؛ جعـلنا الله ممَّن يوفق لفعل الخير، والعمل به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محبكم في الله

فيصل بن عبده قائد الحاشدي

جفاف المشاعر مع الوالدين

من الأولاد من لا يراعي مشاعر والديه، ولا يراعي حقوقهما، وهذا لا يليق بأولي الألباب ولا يصدر من ذوي المروءة الحقة والنفوس الأبية والأعراق الطيبة والإيمان الكامل.

حقوق الوالدين:

إن حق الوالدين من أعظم الحقوق، وكيف لا يكون كذلك وقد جعل الله - سبحانه وتعالى - برهما قرين التوحيد وشكرهما مقرون بشكره.

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ واعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا به شيْئًا وَبالْوَالدَيْنِ إحْسَانًا ﴾ (النساء:٣٦)، وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا به شَيْئًا وبالْوَالديْنِ إحْسَانًا ﴾ (الأنعام:١٥١)، وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وإذْ أَخَذْنَا ميثَاقَ بَني إسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إلاَّ اللَّهَ وَبالْوَالدَيْنِ إحْسَانًا ﴾ (البقرة:٨٣)، وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وقَضَىٰ ربُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبالْوَالدَيْنِ إحْسَانًا إمَّا يَبْلُغَنَّ عندَكَ الْكبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) واخْفضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ منَ الرَّحْمَة وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَاني صَغيراً ﴾ (الإسراء:٢٣-٢٤).

وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بوَالدَيْه حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفصَالُهُ في عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلوَالدَيْكَ إلَيَّ الْمَصيرُ ﴾ (لقمان:١٤)، وأثنى الله - سبحانه وتعالى - على الأنبياء ومن ضمن هذا الثناء لبرهم بوالديهم؛ قال الله - سبحانه وتعالى - في شأن يحيى بن زكريا - عليهما السلام -: ﴿ وَبَرًّا بوَالدَيْه وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصيًّا ﴾ (مريم:١٤)، وقال الله - سبحانه وتعالى - حاكيًا عن عيسى - وهو يتكلم في المهد -: ﴿ قَالَ إنِّي عَبْدُ اللَّه آتَانيَ الْكتَابَ وَجَعَلَني نَبيًّا (٣٠) وَجَعَلَني مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَاني بالصَّلاة وَالزَّكَاة مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بوَالدَتي وَلَمْ يَجْعَلْني جَبَّارًا شَقيًّا ﴾ (مريم: ٣٠-٣٢).

وأخبر ﷺ أن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر؛ فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: ثلاثًا: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئًا فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور»، فمازال يقولها حتى قلتُ: لا يسكت»[1].

فانظر - أخي - كيف أمر ربنا سبحانه وتعالى - بالتوحيد ونهى عن العقوق، وفي آية أخرى أمر بالتوحيد وقرن ذلك بالإحسان إلى الوالدين، وجاءت السنة وقرنت بين الشرك والعقوق وأنهما من أكبر الكبائر فأي وصية بالوالدين أعظم من هذا؟!

وها هو النبي ﷺ يبين لنا منزلة بر الوالدين من بين سائر الأعمال؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله - عزَّ وجلَّ - قال: «الصلاة على وقتها»، قال: ثم أي؟، قال: «ثُمَّ برُّ الوالدين»[2]، قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[3].

وعن أبي الدرداء أن رجلاً أتاه فقال: إن لي امرأة وإن أُمي تأمرني بطلاقها[4]، قال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنَّة، فإن شئت فأضعِ ذلك الباب أو احفظه»[5].

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧).

(٢) بر الوالدين مقدم على الجهاد إذا كان فرض كفاية، فإذا تعين فلا إذن، وهذا قول جمهور أهل العلم، انظر: «فتح الباري» (٦/ ١٤٠).

(٣) رواه البخاري (٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥).

(٤) الذي عليه أهل العلم كأحمد وغيره أن أحد الوالدين إذا أمر ولدهما بطلاق الزوجة أن ينظر في السبب فلعلها تكون صالحة أو مظلومة.

(٥) صحيح: أخرجه الترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجه (٢٠٨٩).

ولا أحد منا يستطيع أن يجزي الوالدين مهما عملنا لهما؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يجزي ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيُعتقه**»[١].

وعن سعيد بن أبي بُردة قال: سمعت أبي يحدث أنه شهد ابن عمر رجلاً يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره يقول:

إني لها بعيرها المذلل ** إن أُذعِرت[٢] ركابها لم أُذعَر

ثم قال: يا ابن عمر! أتراني جزيتها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة[٣]»[٤].

إلى غير ذلك من الأدلة التي تشنف الآذان وتملأ الصدر والنحر.

فإلى الله نشكو جفاف مشاعرنا تجاه الوالدين فكأننا في غفلة[٥] حتى إذا رحلوا عنَّا انتبهنا[٦] ولات حين مناص.

صور من جفاف المشاعر مع الوالدين:

١ ـ التأفف منهما وإظهار التضجر والتبرم من أوامرهما.

وهذا مما نهى الله عنه في كتابه الكريم، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ (الإسراء: ٢٣).

---

(١) رواه مسلم (١٥١٠).

(٢) **اذعرت:** الذعر الخوف أو الفزع.

(٣) **ولا بزفرة واحدة:** الزفير هو ترديد النفس حتى تختلف الأضلاع، وهذا يعرض للمرأة عند الوضع.

(٤) **صحيح:** أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١).

(٥) لا يجمل بالمسلم الغفلة عما يكون سببًا في دخول الجنة، ففي صحيح مسلم (٢٥٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رَغِمَ أنفُ ثم رغم أنف ثم رغم أنف**»، قيل: مَنْ يا رسول الله؟، قال: «**من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة**».

(٦) من مات والديه وهو غافل فالبر يكون بعد موتهما بالدعاء لهما والصدقة عنهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم الذي لا صلة له إلا بهما، وسيأتي بيان ذلك.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي: لا تسمعهما قولاً سيئًا حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ»[١].

٢ ـ نهرهما وزجرهما:

ويكون ذلك برفع الصوت عليهما أو الإغلاظ عليهما أو الكلام معهما بكلام خشنٍ، وهذا ـ أيضًا ـ مما نهى الله عنه.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾، أي: تزجرهما وتتكلم كلامًا خشنًا، ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه، وتأدب وتلطف معهما بكلام حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، أي: تواضع لهما، ذلاً لهما ورحمة، واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد.

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، أي: ادع لهما بالرحمة أحياءً وأمواتًا، جزاءً على تربيتهما إياك صغيرًا، وفُهِمَ من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية»[٢].

وقد يكون للولد والدان كافران فلا يمنعه ذلك من برهما والشفقة عليهما والإنفاق عليهما، ومصاحبتهما بالمعروف.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٤١).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٤٥٦).

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥).

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيتُ رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة[١]، أفأصل أمي؟ قال: «**نعم صلِي أمك**»[٢].

وقد يكون لبعض الناس والدٌ عنده بعض المخالفات الشرعية كأن يكون مخالفًا للسنة على طريقة غير طريقة الولد؛ فعلى الولد أن يرفق به ويحسن إليه، ولعل البر بالأب الكاشح يحتاج إلى مزيد من الصبر والتجمل، ونسيان أي أذية تلحق بولده منه ابتغاء ما عند الله وليجعل همه هو بذل النصح له والشفقة عليه والبر به والقيام بخدمته، وخفض الجناح له، وليعلم الولد أن حرصه على هداية والديه من أعظم البر بهما، فإن هداهما الله على يديه فقد أدى ما عليه من واجب النصح لهما، وبقي عليه أن يعلمهما أمور دينهما، فإن العلم ثبات ويتخولهما بالمواعظ فإن الوعظ فيه حياة القلوب، فإن ماتا فوجب عليه أن يستغفر لهما حياته[٣]، وإن أحب أن يستغفر له أولاده من بعده فليستغفر هو لهما مع والديهما؛ فإن الجزاء من جنس العمل، ولا يكون المرء شفيقًا مع والديه بدون ذلك.

---

(١) راغبة: أي طالبة بر ابنتها لها خائفة من ردها إياها خائبة. «الفتح» (٥/ ٢٣٤).

(٢) رواه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣) واللفظ له.

(٣) لا يقتصر الاستغفار للوالدين بعد موتهما فقط، وإن كان هو المهم فالاستغفار لهما في حياتهما وبعد مماتهما هو المطلوب، لقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾، أي: ادع لهما بالرحمة أحياءً وأمواتًا.

٣ ـ النظر إلى الوالدين شزرًا:

كأن يُحدَّ النظر إليهما أو يرمقهما بحنق أو ازدراء أو احتقار، وهذا من سوء الأدب مع الوالدين ومن العقوق، وكيف لا يكون كذلك وربنا ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾.

عن عروة رضي الله عنه قال: «﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾، قال: لا تمتنع من شيء أحباه»(١).

وقال رضي الله عنه: «ما برَّ والدَه مَنْ شَدَّ الطرف إليه»(٢).

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾، هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن المسيب، وضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً بجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده، والذل هو اللين»(٣).

والنظر إلى الوالدين شزرًا ـ أيضًا ـ منافٍ لتوقيرهما وتقديرهما؛ عن المسور بن مخرمة ومروان رضي الله عنهما. . فذكر الحديث، وفيه: «وإذا تكلموا ـ أي الصحابة ـ خفضوا أصواتهم عنده ـ أي عند رسول الله ﷺ ـ وما يُحدُّون إليه النظر تعظيمًا له»(٤).

٤ ـ رفع الصوت عليهما:

ورفع الصوت من غير حاجة قبيح، وهو مع الوالدين أقبح؛ فهو منافٍ للإجلال والتقدير.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩)، وقال الألباني في «صحيح الأدب المفرد»: صحيح.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٣٣).
(٣) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٤٣).
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣١).

وقد تقدم حديث المسور بن مخرمة ومروان.. فذكر الحديث وفيه: وإذا تكلموا - أي الصحابة - خفضوا أصواتهم عنده - أي عند رسول الله ﷺ - وما يُحدُّون إليه النظر تعظيمًا له»[١].

وقد كان بعض السلف يبالغون في خفض أصواتهم بحضرة والديهم، فعن بعض آل سيرين قال: «ما رأيت محمد بن سيرين يكلِّم أمَّه قط إلا وهو يتضرع».

وعن عون أن محمدًا كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل ظن أن به مرضًا من خفض كلامه عندها»[٢].

وعن ابن عون قال: «دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه فقال: ما شأن محمد؟ أيشتكي شيئًا؟ قالوا: لا؛ ولكن هكذا يكون عند أُمه»[٣].

وعن ابن عون المزني أن أمه نادته، فأجابها فعلا صوتُه صوتَها فأعتق رقبتين»[٤].

٥ - التخلي عن خدمتهما عند الكبر:

إن ترك الأولاد خدمة الوالدين عند الكبر لغيرهم ليدل على جفاف المشاعر، بل ونضوبها، وهو - أيضًا - من الخلل الفادح والتقصير الكبير.

فإن مرحلة الكبر هي مرحلة الضعف، ومرحلة الضعف تستلزم مزيدًا من الإحسان، وليس من البر ترك خدمة الوالدين لغير الأولاد مهما كانت أعمالهم وشواغلهم، فإن الوالدين يجدان الراحة إذا تولى خدمتهما أحد أولادهما.

وجميل أن يتناوب الأولاد على الخدمة والزيارة وتفقد حال الوالدين من حال إلى حال.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).
(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٧٣).
(٣) «السير» (٦/ ١٢٨).
(٤) «السير» (٦/ ٢٦٦).

ومن الخطأ أن يقوم بالخدمة أحدهم بينما بقية الأولاد يكونون قريبًا من الوالدين مكتوفي الأيدي بحجة أن أحدهم قد قام بالواجب، وذلك أن خدمة الوالدين أحق ما تنافس فيها المتنافسون لأنها قربات يتقرب بها إلى الله وباب القربات لا يؤثر فيها الغير.

وقد كان السلف يقومون بخدمة والديهم بأنفسهم وبعضهم لهم بنات وأولاد بالقرب منهم فلم يرضَ أحدهم أن ينافسهم أو يزاحمهم في هذا الخير أحدٌ مهما كان.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله، فادعوا الله - تعالى - بها؛ لعل الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم! إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أَرحْتُ عليهم[1] حلبت، فبدأت بوالدي فسبقتهما قبل بنيَّ، وإنه نآى بي[2] ذات الشجر، فلم آت حتى أمسيتُ فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمتُ عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون[3] عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء ففرج الله منها فُرْجة فرأوا منها السماء»

---

(١) **ارحت عليهم**: أي رددت الماشية من المرعى إليهم.

(٢) **ناى بي**: أي ابتعد بي.

(٣) **الحلاب**: أي الإناء الذي يُحلب فيه.

(٤) **يتضاغون**: يصيحون من الجوع.

فهذا الرجل توسل إلى الله بإحسانه إلى أبويه عند الشيخوخة والكبر فأجاب الله دعاءه وليس من ترك خدمة والديه لبناته وأولاده كمن خدمهم بنفسه مهما كان جاهه[١]، بل الخدمة بالنفس تلين القلب القاسي، وتدر الدموع المحتبسة في العيون فإذا كنت ممن أدرك أحد أبويه أو كليهما فأنت بين طريقين هما طريق الجنة وطريق النار فاختر أيهما شئت، والموفق من وفقه الله.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف»، قيل: مَنْ يا رسول الله؟، قال: «من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنَّة»[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ صعد المنبر فقال: «آمين آمين»، قيل: يا رسول الله إنك حين صعدت المنبر قلت: آمين آمين؟!، قال: «إن جبريل أتاني فقال: من أدرك شهر رمضان ولم يغفر له فدخل النار، فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين، ومن أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين، ومن ذكرت عنده فلم يُصلِّ عليك فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلتُ: آمين»[٣].

٦ - *سب الوالدين أو جلب السب لهما:*

من الكبائر أن يلعن الرجل والديه أو يجلب لهما السِّباب، كأن يشتم الابن أبا أحد من الناس أو أمه، فيرد عليه بشتم أبيه أو أمه.

---

(١) ليس من أناب عنه في خدمة والديه يكون عاقًا لوالديه كلا ما هذا أردنا وإنما طلب الأكمل واقتداءً بالسلف والتماس الأجر العظيم وحصول على دعاء الوالدين كما أن الوالدين لا يجدا الراحة النفسية إلا إذا خدمهما من كانا له في الصغر.

(٢) رواه مسلم (٢٥٥١).

(٣) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٤٦)، وقال الألباني في «التعليق على فضل الصلاة» (١٨/٩): حسن صحيح.

فعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**».

وليس من الأدب إذا سب الوالد ولده أو ضربه أن يرد الابن على الأب بمثل الذي صنع بل إن ذلك من العقوق فيحرم.

فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة ﷺ أن أصحاب الصُّفَّة كانوا ناسًا فقراء، وإن رسول الله ﷺ قال مرة: «**من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثلاثة، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس**» أو كما قال، وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق نبي الله ﷺ بعشرة وأبو بكر بثلاثة، قال: فهو وأنا وأبي وأمي - ولا أدري هل قال: وامرأتي وخادم بين بيتنا وبيت أبي بكر - قال: وأن أبا بكر تعشى عند النبي ﷺ، ثم لبث حتى صُليت العشاء ثم رجع فلبث حتى نعس رسول الله ﷺ فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله، قالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك، أو قالت: ضيفك؟ قال: أوما عشيتهم؟ قالت: أبَوْا حتى تجيء، قد عرضوا عليهم فغلبوهم، قال: فذهبت أنا فاختبأت، وقال: يا غنثر[1]، فجدع وسب، وقال: كلوا، لا هنيئًا، وقال: والله! لا أطعمه أبدًا[2].

وعن سالم بن عبد الله بن عمر، أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَّكم إليها**».

---

(١) يا غنثر: الغنثر هو الوخيم، وقيل: الجاهل.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٠)، ومسلم (٢٠٥٧) واللفظ له.

قال: فقال بلال بن عبد الله[١]: والله لنمنعهن، قال: فأقبل عليه عبد الله فسبه سبًا سيئًا، ما سمعته سبه مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: «والله لنمنعهن»[٢].

٧ ـ عدم الشفقة على الوالدين:

من جفاف المشاعر عدم الشفقة على الوالدين والحرص على هدايتهما وبذل النصح لهما.

فحري بالرجل النبيل أن ينأى بنفسه عن هذه الطباع فله في إبراهيم الخليل ﷺ أسوة حسنة؛ فقد كان شفيقًا على والده يتعاهده بالنصح ويستخدم معه الأسلوب الرقيق.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (مريم: ٤١-٤٥).

فانظر إلى شفقة إبراهيم الخليل ﷺ ورحمته بوالده رغم ما ناله منه، بل انظر إلى أدبه وأسلوبه مع والده الدال على توقيره رغم كفره بالله العظيم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ معلقًا على هذه الآيات: «فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولَمْ يسمه باسمه، ثُمَّ أخرج الكلام مخرج السؤال، فقال: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾.

---

(١) هو بلال بن عبد الله بن عمر.
(٢) رواه مسلم (٤٤٢).

ولم يقل: «لا تعبدْ» ثم قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، فلم يقل: «إنك جاهل لا علم عندك».

بل عدل عن هذه العبارة إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى، فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، ثم قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه، وقال: ﴿يَمَسَّكَ﴾، فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكَّر العذاب، ثم ذكر الرحمن ولم يذكر الجبار ولا القهار، فأيُّ خطابٍ ألطفُ وألينُ من هذا؟»[١].

ولشدة شفقة إبراهيم الخليل على والده أنه لم يكل ولم يمل من النصح له، حياته حتى أنه يطلب له المغفرة بعد مماته إلى أن نهي عن ذلك.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤).

وهذا أبو هريرة ﷺ يرجو من رسول الله ﷺ الدعاء لأمه المشركة بالهداية.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله إني كنتُ أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهْد أم أبي هريرة».

(١) «بدائع الفوائد» للعلامة ابن القيم (٣/ ١٣٣).

فخرجتُ مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ ، فلمَّا جئت فصرتُ إلى الباب، فإذا هو مجافٍ، فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعتُ خضخضة الماء قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت على خمارها ففتحت الباب ثم قالت: يا أبا هريرة، أشهد أنْ لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلتُ: يا رسول الله! أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أمَّ أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا، قال: قلتُ: يا رسول الله ادع الله أن يُحببني وأمي إلى عباده المؤمنين، ويُحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ : «**اللهم حبِّب عبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين**»[1] ، فما خلق مؤمن يسمعُ بي، ولا يراني إلا أحبني».

٨ - *الاقتصار على بر الوالدين في حياتهما:*

من جفاف المشاعر الاقتصار على بر الوالدين في حياتهما، وهذا من التقصير الكبير، والبررة الأوفياء الكرام الأتقياء هم من يبرون آباءهم في حياتهما وبعد موتهما، بل ويعرفون أن حاجة الوالدين إلى البر بهما بعد موتهما أشد من حاجتهما إليه في حياتهما، وما يعقله إلا العالمون، وسوف أذكر بعض أعمال البر التي يصل ثوابها إلى الوالدين بإذن الله:

أعمال البر التي يصل ثوابها إلى الوالدين بعد موتهما:

١ - الاستغفار لهما:

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٤)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنَّى لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**»[2].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٩١).
(٢) حسن: أخرجه أحمد (٢/٥٠٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»[١].

٢ ـ أداء الدين عنهما:

من البر بالوالدين الإسراع في أداء الدين عنهما ولا يجب أن تقسم له تركة إلا بعد استخراج الدين من أصل التركة لقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ (النساء: ١٢).

فإذا لم يكن للوالدين تركة أو لا تفي بالدين فمن البر بهما الإسراع في أداء الدين عنهما، وطلب السماح لهما.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أن امرأة من جُهَيْنَةَ جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تُحجَّ فلم تحج حتى ماتت، أفأحجُّ عنها؟، قال: «نعم حُجِّي عنها، أرأيت لو كان على أمك دَينٌ أكنت قاضِيتَهُ؟ اقضوا الله، فالله أحقُّ بالوفاء»[٢].

٣ ـ الصدقة الجارية:

الصدقة عن الميت يصل ثوابها وينفع ذلك المتصدق ـ أيضًا ـ فلا تقعد عنها فإنها تكفر عن ميتك من سيئاته.

وقد نقل النووي ـ رحمه الله ـ الإجماع على أن الصدقة عن الميت يصل ثوابها وينتفع بها[٣].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أمه توفيت أينفعها إن تصدَّقت عنها؟ قال: «نعم»، قال: فإن لي مِخرافًا، فأنا أشهدك أني قد تصدقت به عنها»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٥٢).

(٣) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٦٧).

(٤) رواه البخاري (٢٧٦٢).

٤ - الصوم عن الوالدين:

عن ابن عباس ﷺ قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن أمي ماتت وعليها صوم نذر، أفأصوم عنها؟ قال: «أرأيت لو كان على أمك دين فقضيتيه أكان يؤدي ذلك عنها؟» قالت: نعم، قال: «فصومي عن أمك»[(١)(٢)].

٥ - الحج عن الوالدين:

يستحب الحج عن الوالدين إذا ماتا أو كانا كبيرين لا يستطيعان الحج، ولابد أن تحج عن نفسك أولاً، فعن ابن عباس ﷺ قال: كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خَثْعَمَ تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وَجْهَ الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله! إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وذلك في حجة الوداع[(٣)].

٦ - العمرة عنهما:

عن أبي رزين أنه قال: يا رسول الله! إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن، قال: «حج عن أبيك واعتمر»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨).

(٢) لم أذكر قراءة القرآن ووهب ثوابها للميت؛ لأنه لا دليل عليه، قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٤٥): «من قال: إن الميت ينتفع بسماع القرآن ويؤجر على ذلك فقد غلط»، وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره (٤/ ٢٥٨): «إن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء».

(٣) رواه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٠)، وأبو داود (١٨١٠)، والترمذي (٩٣٠)، وابن ماجه (٢٩٠٦)، والنسائي (٥/ ١١٧).

٧ ـ قضاء النذر عن الوالدين:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن سعد بن عبادة الأنصاري استفتى النبي ﷺ في نذر كان على أمه فتوفيت أمه قبل أن تقضيه فأفتاه أن يقضيه عنها، فكانت سنةً بعد[١].

٨ ـ صلة الرحم الذي لا صلة لك إلا بهما:

كصلة العم والعمة[٢]، والخال والخالة[٣]، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يأجر والديك على تلك السنة الحسنة التي سنها لك[٤].

٩ ـ استخلاف والديك في تربية إخوانك وأخواتك:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في حديث طويل وفيه إن النبي ﷺ سألني: «هل تزوجت بكرًا أم ثيبًا؟» فقلت: تزوجتُ ثيبًا، قال: «فهلا تزوجت بكرًا تلاعبها وتلاعبك؟» قلت: يا رسول الله! توفي والدي ـ أو استشهد ـ ولي أخوات صغار، فكرهت أن أتزوج مثلهن فلا تؤدبهن ولا تقوم عليهن، فتزوجتُ ثيبًا لتقوم عليهن وتؤدبهن»[٥].

١٠ ـ صلة أصدقاء الوالدين:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أبَرِّ البرِّ صلَةَ الرجل أهل وُدِّ أبيه بعد أن يُولِّي»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٦٩٨).

(٢) العم بمقام الوالد، فقد أخرج الطبراني في «الكبير» (٣/ ٨٤) بسند صحيح صححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٤١) من حديث عبد الله الوراق قال: قال رسول الله ﷺ: «العم والد»، وبناءً على ذلك فالعمة لها حكم العم إذ هي أخت الأب، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢١٩٠) بشواهده.

(٣) أخرج ابن سعد في «الطبقات» بسندٍ صحيحٍ لشواهده (٤/ ٤٥) من حديث محمد بن علي أن رسول الله ﷺ قال: «الخالة والدة».

(٤) انظر: «ما ينفع الوالدين» للعدوي.

(٥) رواه البخاري (٢٩٦٧).

(٦) رواه مسلم (٢٥٥٢).

جفاف المشاعر في التعامل مع الأولاد

لجفاف مشاعر الوالدين تجاه الأولاد مفاسد عظيمة ومخاطر جسيمة ويزداد الأمر خطورة إذا كان هذا الجفاف في مرحلتي الطفولة والبلوغ؛ فالأولاد من أجل النعم وهما بحاجة إلى دفء المشاعر الذي يريحهم نفسيًا ويشبع عواطفهم، فحاجتهم إليه كحاجة الظمآن إلى بارد الشراب والأرض المجدبة إلى ماء المطر، ولعل البنات أشد حاجة إلى دفء المشاعر من الأبناء؛ فإذا حرموا من دفء المشاعر داخل البيت فأصدقاء السوء في انتظارهم، ليسدوا ذلك الفراغ وربما قادهم ذلك الجفاف على العقوق والتمرد داخل البيت، ومما يسفر عنه جفاف المشاعر تجاه الأولاد ما يأتي:

صور من جفاف المشاعر مع الأولاد:

١ - عدم استشعار المسئولية:

الأولاد أمانة في أعناقنا وسوف يسألنا الله - سبحانه وتعالى - عن هذه الأمانة، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع في بيته، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها**»[١].

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥)، ومسلم (١٨٢٩).

٢ ـ عدم تقبيل الأولاد والرحمة بهم والعطف عليهم:

إن تقبيل الأولاد والشفقة عليهم يعطيهم جرعات من الدفء العاطفي والنفسي يشبع حاجتهم ويربطهم بوالديهم، وقد كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالأولاد وهديه خير الهدي وأكمله.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُصلي فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فإذا أرادوا أن يمنعوهما أشار إليهم أن دَعُوهما، فإذا قضى الصلاة وضعهما في حجره وقال: «من أحبني فليُحب هذين»[(١)].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص بن ربيعة فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها[(٢)].

وهذا من شفقته ﷺ على الصغار ورحمته بهم، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ حدثه قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّز في صلاتي مما أعلم من شدة وُجد أمّه من بكائه»[(٣)].

وكان النبي ﷺ يداعب الأطفال ويمازحهم، فعن أنس رضي الله عنه قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتَّى يقول لأخٍ لي صغير: «يا أبا عمير ما فعل النُّغير[(٤)]»[(٥)].

وعن أم خالد بنت خالد رضي الله عنها قالت: «أُتي النبي ﷺ بثياب فيها خميصة[(٦)] سوداء صغيرة فقال: من ترون أن نكسوه هذه؟ فسكت القوم، قال: ائتوني بأم خالد، فأُتي بها تُحمل، فأخذ الخميصة بيده فألبسها، وقال: «أبلي وأخلقي»، وكان فيها عَلَمٌ أخضرُ أو أصفَرُ، فقال: «يا أم خالد هذا سَنَاهْ»، وسناه بالحبشية حَسَنٌ»[(٧)].

---

(١) حسن: رواه أبو يعلى في مسنده (٨/ ٤٣٤).
(٢) رواه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣).
(٣) رواه البخاري (٧٠٩)، ومسلم (٤٧٠).
(٤) النُّغير: طائر صغير.
(٥) رواه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).
(٦) الخميصة: ثوب من صوف أو حرير مُعلَّم.
(٧) رواه البخاري (٥٨٢٣).

وعن محمود بن الربيع رضي الله عنه قال: «عقلتُ من النبي ﷺ مجةً مجَّها في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دَلْوٍ»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ في طائفة من النهار لا يُكلِّمني ولا أُكلِّمه حتَّى أتى سوق بني قينقاع، فجلس بفناء بيت فاطمة، فقال: «أثمَّ لكع أثمَّ لكع؟»[٢]، فحبسته شيئًا فظننت أنها تُلبسه سخابًا أو تغسله فجاء يشتد حتى عانقه وقبَّله[٣]، وقال: «من أحبني فليُحب هذين»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت أحدًا كان أشبه سَمْتًا وهَدْيًا ودَلاً برسول الله ﷺ من فاطمة رضي الله عنها، كانت إذا دخلت عليه قام إليها، فأخذ بيدها وقَبَّلَها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه، فأخذت بيده فقبلته وأجلسته في مجلسها»[٥].

وعن البراء رضي الله عنه في قصة الهجرة، قال: فدخلتُ مع أبي بكر على أهله فإذا عائشة ابنته مضطجعة قد أصابتها حمًّى فرأيت أباها يُقبِّل خدها[٦]، وقال: كيف أنت يا بُنَيَّة؟»[٧].

---

(١) رواه البخاري (٧٧).

(٢) **اثم لكع**: المراد به هنا الصغير، قاله النووي في «شرح مسلم» عند شرحه لحديث (٢٤٢١).

(٣) قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ كما في «فتح الباري» (١٠/٤٢٧): «يجوز تقبيل الولد الصغير في كل عضو منه، وكذا الكبير عند أكثر العلماء ما لم يكن عورة».

(٤) رواه البخاري (٢١٢٢)، ومسلم (٢٤٢١).

(٥) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٥٢١٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٤٣٤٧).

(٦) قال بعض أهل العلم أن ذلك كان قبل الحجاب، وكان البراء دون البلوغ.

(٧) رواه البخاري (٣٩١٧).

وعن أنس رضي الله عنه قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين[١]، وكان ظئرًا[٢] لإبراهيم عليه السلام فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله وشمّه»[٣].

٣ - عدم تعاهد الأولاد بالتربية:

إن عدم تعاهد الأولاد بالتربية من الصغر ليدل على جفاف المشاعر التي منها عدم المبالاة بالعواقب.

فحري بالوالدين أن يستدركا عليهما أمرهما قبل أن ينفتق ما لا يرتق، فإن العلم في الصغر كالنقش في الحجر.

قال سابق البربري:

قد ينفع الأدبُ الأحداثَ في مهل ... وليس ينفعُ عندَ الكبيرةِ الأدبُ

إن العضوية إذا قوّمتها اعتدلت ... ولن تلين إذا قوّمتها الخشبُ

وقد كان النبي ﷺ يربي الأبناء على التوجه إلى الله والتعرف عليه في الرخاء والشدة، ويوجههم إلى ما فيه صلاحهم، ويراقب تصرفاتهم وسلوكهم مع بعضهم البعض ليصلحها لهم.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خَلْفَ النبي ﷺ يومًا فقال: **«يا غلامُ: إني أُعَلِّمُكَ كلماتٍ: احفظ الله يَحْفَظْكَ، احفظ اللهَ تَجِدْهُ تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأُمَّةَ لَو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ لم يَنْفَعُوكَ إلا بشيءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وإنْ اجتمعوا على أن يَضُرُّوكَ بشيءٍ لَمْ يَضُرُّوك إلا بشيءٍ قدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَت الأقلام، وجَفَّت الصُّحُف»**[٤].

---

(١) القين: الحداد.

(٢) الظئر: زوج المرضعة.

(٣) رواه البخاري (١٣٠٣).

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

وفي رواية غير الترمذي: «احفظ الله تجده أمامك، تَعَرَّفْ إلى الله في الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة، واعلم أنَّ ما أخطأكَ لم يكُن ليُصيبكَ، وما أصابك لم يكن ليُخْطئَكَ، واعلم أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا»[١].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنَّا إذا حضرنا مع النبي ﷺ طعامًا لم نضع أيدينا، حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده، وإنا حضرنا معًا مرة طعامًا، فجاءت جارية كأنها تُدْفَع[٢] فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يُدفعُ، فأخذ بيده، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشيطان يستحل الطعام أن لا يُذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها، فأخذت بيدها فجاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده، والذي نفسي بيده! إن يدهُ في يدي مع يدها[٣]»[٤].

وعن عمر بن أبي سلمة قال: كنتُ غلامًا في حِجْر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام سمِّ الله وكُل بيمينك وكل مما يليك»[٥].

ويحث على تعليم الأولاد الصلاة ومن امتنع عنها وهو ابن عشر سنين فحقه الضرب بالعصا؛ فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها[٦] وهم أبناء عشر سنين،

(١) حسن: أخرجه أحمد في المسند (٢٨٠٤)، وعبد بن حميد في مسنده (٦٣٦).
(٢) تدفع: أي تسرع.
(٣) وفي بعض الرواية في يدهما والتثنية تعدو على الجارية والأعرابي.
(٤) رواه مسلم (٢٠١٧).
(٥) رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).
(٦) استدل أهل العلم بهذا الحديث وغيره على جواز ضرب الأطفال بقصد تأديبهم، ومع أن الأصل هو الرفق إلا أن بعض الأطفال منهم من ينفع معه الإعراض، ومنهم من ينفع معه الكلمة الطيبة، ومنهم من لا يصلحه إلا الضرب، ولا تنفع معه إلا الشدة؛ فحينئذ يضرب بقدر المصلحة المتحققة، =

وفرقوا بينهم في المضاجع[١] »[٢].

وعلى الوالدين أن يعلما أولادهمـا أصول الإيمان، وأركان الإسلام، ويشـرحا ذلك لهما[٣]، ويذاكراهما ذلك بين الحين والآخر، فإن حياة العلم مذاكرته، وعليهما ـ أيضًا ـ أن يعلما أولادهمـا أذكار الصبـاح والمساء والأذكار اليومـية[٤]، وآداب الطعام، وأحكام

= ولا يقتـصر الضرب على الصلاة فـقط بل على أي خطأ يستدعي الضـرب، فقد أخرج البـخاري في «صحيـحه» (٥٥١٤) من حديث ابن عمـر رضي الله عنهما أنه دخل على يحيى بن سعيد وغـلامٌ من بني يحيى رابطٌ دجاجة يرميها فمشى إليها ابن عمر حـتى حلَّها ثم أقبل بها والغلام معه فقال: ازجروا غلامكم عن أن يصبر هذا الطير للقتل فإني سمـعت النبي ﷺ نهى أن تصبر ـ أي تُحبس لترمى حتى الموت ـ بهيمة أو غيرها للقتل.

وعلى الوالدين أن يتقـيا ضرب الأولاد على وجـوههم فقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، في صـحيح مـسلم (٢٦١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: **«إذا ضـرب أحدكم أخـاه فليجتنب الوجه».**

(١) قال المناوي كما في «عون المعبود» (٢/ ١٦٢): «أي فرقوا بين أولادكم في مضاجعهم التي ينامون فيها إذا بلغوا عشرًا حذارًا من غوائل الشهوة، وإن كنَّ أخوات!» اهـ.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٣) يحسن تحـفيظهم هذا الحـديث الشريف الذي أخرجـه مسلم (٨) من حديـث أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينـا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعـر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحـد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتـيه إلى ركبتيه، ووضع كـفيه على فخذيه وقال: يا مـحمد أخبرني عن الإسلام فـقال رسول الله ﷺ: **«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»**، قال: صدقت، قال: فعجـبنا له، يسأله ويصدقه قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: **«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**، قال: صدقت، قال: فأخـبرني عن الإحسان؟ قال: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: **«ما المسئول عنها بأعلم من السائل»**، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: **«أن تلد الأمَةُ ربَّتـها، وأن ترى الحفـاة العراة، العـالة رعـاء الشـاء، يتطاولون في البنيـان»**، قال: ثم انطلق فلبثت مليًا، ثم قال لي: **«يا عمر أتدري من السائل؟»**، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»**.

(٤) هناك كتـاب أذكار بعنوان (حـرز المسلم) لراقمـه أنصح باقتنائه، والاسـتفادة منه في تـلقين الأطفال الأذكار اليومية، فقد حاولت بعون من الله الاقتصار على الكتاب وصحيح السنة.

الوضوء، والأدب مع الجيران والأقارب، واحترام الكبير، والرحمة بالصغير، والعطف على الفقراء والمساكين، والإحسان إليهم، وحثهم على الصدقة ويبين لهم فضلها[١].

ويؤدب الوالدين أولادهما بسائر الأدب وجميل أن يتخلل ذلك التشجيع والهدية.

وعلى الوالدين - أيضًا - أن يحرصا على أن يجالس أولادهما الصالحين[٢]، كما عليهما أن يحذرا أولادهما من جلساء السوء كأهل البدع وغيرهم من الفاسقين، ويعلموهم أدب السلام، والكلام، والعطاس، والتثاؤب، ونحو ذلك.

---

(١) أخرج البخاري (١٤١٣) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه.. «ثم ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يُترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالاً، فيقولن: بلى، ثم ليقولن: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فليقولن: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلى النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة».

(٢) مجالسة الصالحين لها أثر عظيم في صلاح الأولاد؛ فهذه أم سليم أتت بولدها أنس يخدم رسول الله ﷺ كما في «صحيح البخاري» (١٩٨٢)، واللفظ له، ومسلم (٦٦٠).

عن أنس رضي الله عنه وفيه فقالت أمي: يا رسول الله إن لي خويصه، قال: «ما هي»، قالت: خادمك أنس، فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لي به».

فقد حرصت أم سليم على أن يخدم أنس رسول الله ﷺ وقد استفاد أنس من رسول الله ﷺ خيرًا كثيرًا وحمل عنه علمًا غزيرًا، وهذه أم حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما تنال من حذيفة؛ لأنه لم يجالس النبي ﷺ.

- ففي سنن الترمذي (٢٩٧٥) بسند صحيح صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٧٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: سألتني أمي متى عهدك؟ تعني بالنبي ﷺ؛ فقلت: ما لي به عهد منذ كذا وكذا، فنالت مني، فقلتُ لها: دعيني آتي النبي ﷺ فأصلي معه المغرب، وأسأله أن يستغفر لي ولك، فأتيت النبي ﷺ فصليتُ معه المغرب، فصلى حتى صلى العشاء، ثم انفتل فتبعته فسمع صوتي فقال: «مَنْ هذا حُذيفة؟»، قلت: نعم، قال: «ما حَاجَتُكَ غَفَرَ الله لَكَ ولأُمِّكَ؟ قال: إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل الليلة استأذن رَبَّهُ أن يُسَلِّمَ عليَّ ويُبَشِّرني بأنَّ فاطمة سَيِّدةُ نِسَاء أهل الجنَّةِ وأن الحَسَنَ والحُسَين سَيِّدا شَبَاب أهلِ الجنَّةِ».

وعليهما - أيضًا - أن يبذلا جهدهما وطاقتهما في الأخذ بأسباب الهداية والقيام بما أوجبه الله عليهما في تربية أولادهما، والهداية بيد الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٨).

فالهداية بيد الله وحده والإنسان لا يملك الهداية لنفسه فكيف يهدي غيره، فهذا نبي الله نوح لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، فكم آمن معه وكم استجاب لدعوته يأتيك الجواب من الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (هود: ٤٠)، فنوح عليه السلام لبث في قومه ما لبث يدعوهم إلى الله لكنهم لا ينتفعون بنصحه ودعوته لأن الهادي هو الله.

قال الله - سبحانه وتعالى - حاكيًا عن نوح إذ قال لقومه: ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (هود:٣٤).

بل إن نوحًا عليه السلام يُلح على ولده أن يؤوب إلى رشده ويقبل هدى الله ويركب معه في السفينة، فما رضى وما أناب، فالله - سبحانه وتعالى - ما كتب عليه الهداية، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (هود:٤٢-٤٣).

وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - والدين صالحين وهما يجتهدان في دعوة ولدهما أن يقبل هدى الله فما قبل وما رضي بل قابلهما بأقبح مقابلة فقال لهما: ﴿ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾، حتى أن الوالدين يستغيثان الله به استغاثة الغريق ويتوجعان له ويجتهدان في بيان الحق له ويقولان إن وعد الله حق فلا يزداد إلا نفورًا واستكبارًا، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا

يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٧-١٨).

فهذان الوالدان قد بذلا جهدهما وطاقتهما في النصح والتوجيه والدعاء وقد استخدما معه الرفق والشدة والترغيب والترهيب فما استجاب لهما فما علينا إلا البلاغ المبين والتربية الحقة والمتابعة المستمرة ابتغاء ما عند الله فمن استجاب لنا فإن الله هو الذي أراد له ذلك، ومن لم يستجب نتابعه حتى تفارق أرواحنا أجسادنا فإن متنا أوصينا بهم أهل الصلاح من إخواننا فإن هذه الأمة كالغيث لا ندري خير أوله أم آخره، ولعل الله يجعل بعد عسر يسرا، وكم من ولد تاب وأناب بعد موت والديه فلا يأس مع الأمل، ولا أمل مع اليأس.

ورب رجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، ورب رجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها[1].

فلا ينبغي لنا أن نقطع أن فلانًا شقيًا وفلانًا سعيدًا، بل نربي ونوجه وننصح حتى يبلغ الكتاب أجله مع الرفق فإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على سواه[2]، ولا تنسَ - أيضًا - الدعاء بصلاح الذرية.

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: «إِنَّ أحدَكُم يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أربَعِينَ يومًا نُطْفَةً، ثُمَّ يكونُ علقةً مثل ذلك، ثُمَّ يَكونُ مُضْغَةً مثل ذلك، ثُمَّ يُرسَلُ إليهِ المَلكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، ويُؤمَرُ بِأَرْبَعِ كلماتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فوالله الذي لا إله غيرُهُ، إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهلِ الجَنَّة فيدْخُلُهَا».

(٢) جاء في «صحيح مسلم» (٢٥٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه وما يُنزع من شيءٍ إلا شانه».

٤ ـ الإكثار من العتاب:

من جفاف المشاعر الإكثار من العتاب بلا مسوغ فربما دفع الأولاد إلى الكذب والخداع، وربما صار ذلك لهم عادة لا ينفكون عنها غالبًا؛ فعلى الوالدين أن يعرضا عن بعض الأمور فإن للأطفال قدرات عقلية يجب أن تراعى كما للمرأة قدرتها العقلية.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ (التحريم: ٣)، فالمرأة إذا أخطأت في ثلاث فلتؤاخذ في بعضها، ويتغافل عن بعض والأطفال كذلك فالعتاب مر المذاق، فالتغافل عن بعضه يحفظ للمربي هيبته.

وقد يحسن بالمربي اطراح العتاب إذا كانت له هيبة وكلمة مسموعة يستدعي حسن أدب من الأطفال.

فعن أنس ﷺ قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أفٍّ قطُّ ولا قال لي لشيء لِمَ فعلت كذا، وهلاَّ فعلت كذا»[1].

٥ ـ التقتير على الأولاد:

من جفاف مشاعر الوالدين البخل على الأولاد، وعدم كفايتهم، فربما قادهم ذلك إلى السرقة أو التسول، أو إذلال أنفسهم، فعلى الوالد الإنفاق على أولاده بالمعروف، فإن الأولاد وإن كانوا يرون أن ذلك حق واجب لهم وكذلك الأهل فإن أجر ذلك لعظيم.

فعن المقدام بن معدي كرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٣١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»[٢].

٦ - *إهمال نظافة الأولاد:*

من جفاف مشاعر الوالدين تجاه الأولاد عدم الاهتمام بنظافتهم كنظافة ثيابهم وأبدانهم، وهذا من الخلل الفادح والتقصير الكبير؛ فالنظافة أمرٌ مشروعٌ ومرغبٌ فيه.

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١)، وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ في طائفة من النهار لا يُكلمني ولا أكلِّمُهُ حتَّى أتى سوق بني قينقاع فجلس بفناء بيت فاطمة فقال: «أثم لكع؟» فحبسته شيئًا فظننت أنها تُلبسهُ سخابًا أو تغسلُهُ، فجاء يشتد حتَّى عانقه وقبَّله، وقال: «اللهم أحبه وأحبَّ من يُحبُّه»[٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أراد النبي ﷺ أن ينحى مخاط أسامة، قالت عائشة: حتى أكون أنا الذي أفعل، قال: «يا عائشة أحبيه فإني أحبه»[٥].

---

(١) رواه مسلم (٩٩٥).
(٢) رواه البخاري (٥٣٥٥).
(٣) أخرجه مسلم (٩١).
(٤) رواه البخاري (٢١٢٢)، ومسلم (٢٤٢١).
(٥) حسن: أخرجه الترمذي (٣٨١٨).

وعن عائشة رضي الله عنها - أيضًا - قالت: عثر أسامة بعتبة الباب فشج في وجهه فقال لي رسول الله ﷺ: «اميطي عنه الأذى»، فقذرته فجعل يمص الدَّم ويمجُّه عن وجهه ويقول: «لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته حتى انفقه»[(١)].

وما من شك أن منظر الأولاد يدل على والديه إن حسنًا فحسن، وإن قبيحًا فقبيح؛ فلا يحسن ولا يجمل ترك الأولاد متسخي الثياب على وجوههم الوسخ، وعلى رؤوسهم القمل، وعلى أجسادهم الذباب، قد سال على أفواههم المخاط، قد علا على أظفارهم الوسخ بسبب عدم تعاهدها بالقص، فإن ذلك يدل على جفاف المشاعر بل وعلى ضفة الشأن، فحري بالوالدين السمو بنفوسهما وحملها على الخير حملاً فإن النفس إذا ما عودت تعتاد.

٧ - الدعاء على الأولاد:

لعل من أخطر الأمور التي ينتج عن جفاف مشاعر الوالدين الدعاء على أولادهما، والدعاء على الأولاد ظاهرة منتشرة عند كثير من الناس، وكم شقى منهم بأولادهم بسبب دعائه عليهم في ساعة غضب، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على انفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعةً يسأل فيها عطاءً فيستجيب لكم»[(٢)].

ودعاء الوالدين على ولدهم يستجاب ما من ذلك بد؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثُ دعواتٍ مستجاباتٍ: دعوةُ المظلوم، ودعوة المُسافر، ودعوةُ الوالدِ على ولدِهِ»[(٣)].

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه أحمد (٦/ ١٣٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢٣٥٦).
(٢) رواه مسلم (٣٠٠٩).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٨١)، وأبو داود (١٥٣٥)، والترمذي (١٩٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٣٧٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان جُريج يتعبَّدُ في صَومَعَتهُ، فجاءتْ أُمُّهُ، قال حُمَيْد: فوصف لنا أبو رافع صفة أبي هريرة لصفة رسول الله ﷺ أُمَّهُ حين دعته كيف جعلت كفَّها فوق حاجبها ثُمَّ رفعت رأسها إليه تدعوه»، فقالت: يا جريج! أنا أُمُّكَ كلِّمني، فصادفته يُصَلِّي، فقال: اللهم! أُمي وصلاتي، فاختار صلاته، فرجعت ثُمَّ عادت في الثانية فقالت: يا جُرَيْجُ! أنا أُمك فكلمني، فقال: اللهُمَّ! أُمي وصلاتي، فاختار صلاته، فقالت: اللهم إن هذا جُرَيْجُ، وهو ابني وإنِّي كلمته فأبى أن يكلمني، اللهمَّ! فلا تُمتْهُ حتَّى تُريَهُ المُومسات[١]، قال: ولو دعت عليه أن يفتن لَفُتِنَ، قال: وكان راعي ضأن يأوي إلى دَيْرِه[٢]، قال: فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الرَّاعي، فحملتْ فولَدَتْ غلامًا، فقيل لها: ما هذا؟ قالت: من صاحب هذا الدَّيْرِ، قال: فجاؤُا بفُؤُوسهم ومساحيهم، فنادوه فصادفوه يُصَلِّي، فَلَمْ يُكلِّمْهُمْ، قال: فأخَذُوا يَهْدِمُونَ دَيْرَهُ، فَلمَّا رأى ذلك نزل إليهم، فقالوا له: سَلْ هذه، قال: فتبسَّم ثُمَّ مسح رأسَ الصَّبِيِّ فقال: مَنْ أَبُوكَ؟ قال: أبي راعي الضأن، فَلَمَّا سَمِعُوا ذلك مِنْهُ قالوا: نبني ما هدمنا مِنْ دَيْرِكَ بالذَّهَبِ والفِضَّةِ، قال: لا، ولكنْ أعيدُوهُ ترابًا كما كان، ثُمَّ علاه»[٣].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «قال العلماء: هذا دليل على أنه كان الصواب في حقه إجابتها لأنه كان في صلاة نفل، والاستمرار فيها تطوع لا واجب وإجابة الأم وبرها واجب وعقوقها حرام، وكان يمكنه أن يخفف الصلاة ويجيبها ثم يعود لصلاته فلعله خشي أنها تدعوه إلى مفارقة صومعته والعود إلى الدنيا ومتعلقاتها وحظوظها وتضعف عزمه فيما نواه وعاهد عليه»[٤].

---

(١) المومسات: هن الزواني البغايا المتجاهرات.

(٢) الدير: هو الصومعة التي يتعبد فيها رهبان النصارى.

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٠).

(٤) شرح النووي على مسلم عند شرحه لحديث (٢٥٥٠).

٨ ـ عدم العدل بين الأولاد:

دفء المشاعر والعدل أخوان مؤتلفان أينما وجد أحدهما وجد الآخر، والجور وجفاف المشاعر صنوان لا يفترقان إلا أن يشاء الله.

وعدم العدل بين الأولاد سبيل إلى كل بلية وشر، فهو طريق إلى العداوة والخصام فالجور مقرون بالعطب، فكأن الوالدين بفعلهما إنما يزرعان الحقد في نفوس أولادهما من الصغر، والحقد يتوالد منه الحسد، والحسد يتوالد منه العداوة ما من ذلك بد.

فلابد من العدل بين الأولاد في الهبات، فعن النعمان بن بشير ﷺ قال: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتَّى تُشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيتُ ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله قال: «**أعطيت سائِرَ وَلَدِكَ مثل هذا؟**»، قال: لا، قال: «**فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**»[1].

وكما يكون العدل بين الأولاد في الهبات، فالعدل في المعاملة حتى في الابتسامة، فإذا حملت أحد أولادك فاحمل الآخر، وإذا قبلت أحدهما فقبل الآخر، وإذا أجلست أحدهما بين كتفيك اجلس الآخر على الكتف الآخر، خاصة إذا كان الثاني موجودًا، من أجل أن ذلك يحزنه ويوغر صدره، وهكذا يكون التعامل مع سائر الأولاد، وإذا قمت برحلة مع أحدهم فمن العدل أن تقوم برحلة مع سائر أولادك؛ فإذا كان يسرك أن يكونوا إليك في البر سواء فاسلك معهم مسلك العدل والإنصاف فمن الأولاد من ينمو الحقد في قلبه على إخوانه بسبب الجور، وإن كان

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

شيئًا عابرًا لا يلتفت إليـه الوالدين بل إن من الوالدين من يتفطن لذلك، وإنه ليحاول إثارته نكاية به إما لتقصيره أو لسوء تصرفاته وما هكذا تكون التربية.

وإذا كان الأب أو الأم قد رُزقا محبـة أحد الأولاد لأخلاقه وبره وحسن أدبه[1]، فلا يجمل بأحدهما أو كليهما أن يظهـرا ذلك أمام إخوانه إلا أظهر لهما مثله حتى لا يطمع فيهما الشيطان، فيكيد لهم فيوقع بينهم العداوة والبغضاء.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف: ٧-٩).

---

(١) العدل في المحبة القلبية غير مستطاع، فالذي يحول بين المرء وقلبه هو الله الذي بيده قلوب العباد، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ في شأن موسى ﷺ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (طه: ٣٩).

وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء: ١٢٩)، قال جمهور العلماء في تفسيرها: أن العدل الذي ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ هنا أنه لا يستطاع هو العدل في المحبة والميل الطبيعي وأضافوا ـ أيضًا ـ إلى العدل الذي لا يستطاع (الجماع)، لأنه ليس تحت قدرة البشر، بخلاف العدل في الحقوق الشرعية فإنه مستطاع»، انظر «فقه تربية الأبناء» للعدوي (ص٧).

وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (الأنفال: ٢٤)، وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦)، وأخرج البخاري (٢٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧)، واللفظ له من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبدًا، دعا جبريل فقال: إني أحبُّ فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيُحبهُ أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء، إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»، وأخرج الإمام مسلم في صحيحه (١٨٨٨) من حديث عن عائشة ﷺ قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة»، قالت: فأغضبته يومًا فقلتُ: خديجة؟! فقال رسول الله ﷺ: «إني قد رزقت حبها»، إلى غير ذلك من الأدلة التي تدل على أن المحبة القلبية شيءٌ جبليٌّ من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فيعقوب ﷺ أحب يوسف ورزق حبه ومع ذلك فإخوة يوسف نالوا من أبيهم ووصفوه بالضلال؛ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف:٨)، بل إنهم تآمروا على يوسف وأرادوا قتله وما ذاك إلا رغبةً في إقبال أبيهم عليهم وخلو وجهه لهم.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ حاكيًا عنهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (يوسف:٩).

على أن العدل في غير الهبات[1]، ليس على الوجوب وإنما على الاستحباب حفاظًا على القلوب من الأذى كما قيل:

واحرص على حفظ القلوب من الأذى ⋆ فرجوعها بعد التنافر يصعبُ

إن القلوب إذا تنافر وُدُّها ⋆ شبه الزُّجاجة كسرها لا يُشْعَبُ

---

(١) الجمهور على أن العدل في الهبات على الاستحباب وذهب جماعة من العلماء إلى الوجوب وهم طاووس، والثوري، وأحمد، وإسحاق كما عزاه إليهم الحافظ في «الفتح» (٥/ ٢١٤)، وهو قول البخاري وابن حزم وغيرهم.

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في «الفتح» (٥/ ٢١٤) عند شرحه لحديث النعمان بن بشير المتقدم: «وقد تمسك به من أوجب التسوية في عطية الأولاد، وبه صرح البخاري وهو قول طاووس، والثوري، وأحمد، وإسحاق، وقال به بعض المالكية ثم المشهور عند هؤلاء أنها باطلة وعند أحمد تصح ويجب أن ترجع، وعنه يجوز التفضيل إن كان له سبب كأن يحتاج الولد لزمانته (أي لمرضه الدائم الملازم له)، ودينه (كأن يطلب العلم ويتفرغ له أو نشره بين الناس)، أو نحو ذلك دون الباقين، وقال: أبو يوسف تجب التسوية إن قصد الإضرار، وذهب الجمهور إلى أنها مستحبة، فإن فضل بعضًا، صح وكره واستحب المبادرة إلى التسوية أو الرجوع فحملوا الأمر على الندب والنهي على التنزيه، ومن حجة من أوجبه أنه مقدمة الواجب؛ لأن قطع الرحم والعقوق محرمان، فما يؤدي إليهما يكون محرمًا، والتفضيل مما يؤدي إليهما» اهـ.

قلت: إذا كانت الهبات تؤدي إلى قطيعة الرحم والعقوق فكيف بالوصية وهي محرمة بإجماع العلماء كما نقل ذلك القرطبي ـ رحمه الله ـ لاشك أنها تؤدي إلى ما هو شر من ذلك أنها تؤدي إلى جناب قطيعة الرحم والعقوق والعداوة والبغضاء، وإيجاد الضغائن بين الأقارب، ومما يدل على تحريم الوصية ما أخرجه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠) بسند حسن صحيح، قاله الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٩٤) من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله اعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»**.

ومن حق الوالدين أحدهما أو كليهمـا إجلال وتقدير الولد الصالح المطيع لوالديه الذي ينفق عليهـما ويحسن إليـهما، لكن إذا كان في إظهـار الحب مفسدة فـالإسرار أفضل، وإن كان في إظهار الحب مصلحة كـأن يقتدي به إخوانه ويتنافسون على حب الوالدين لهم ويتسابقـون إلى طاعتهما والإحـسان إليهما فـإظهار الحب أفضل ويرجع ذلك إلى حكمة الوالدين ومعرفتهما بنفسيات أولادهما.

٩ ـ تجاهل البنات:

البنات بحاجة إلى دفء المشـاعر أكثر من الأبناء فهن يأخذن ليعـطين ومن طبيعة الأنوثة العاطفـة واللين، ومن طبيعة الذكـورة الشدة والقسـوة، ومن هنا كانت البنت ألين عريكة وأرق قلبًا، وأسلس قيادة.

وهي ـ أيضًا ـ أشد عطفًا وحنوًا علـى أُمها وأبيها، وأكثر رأفة ورحـمة بإخوانها وأرحم قلبًا للناس فمـتى حرمت من دفء المشاعر داخل البيت أثر ذلك على طبـعها وأخلاقها أيما تأثير وربما أثر ذلك على حياتها الزوجيـة فطبعها غليظ، وأخلاقها جافة تثور لأتفه الأسباب، وربما أثر ذلك على أولادها لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

فعلى الوالدين أن يتقيا الله وأن يحاولا إشباع البنات عاطفيًا ونفسيًا بالحب والحنان والرحمة والصـبر الجميل، فإن البنات حـسنات كما أن الأولاد نعمة، والله ـ سـبحانه وتعالى ـ يجازي على الحسنات ويحاسب على النعمة.

١٠ ـ التسخط من البنات:

ولا ينبغي للرجل أن يتسخط من البنات فـإن ذلك من أخلاق أهل الجاهلية، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَـوْمِ مِن سُـوءِ مَـا بُشِّـرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّـهُ فِي التُّـرَابِ أَلا سَـاءَ مَـا يَحْكُمُـونَ ﴾ (النحل: ٥٨-٥٩).

وعلينا - أيضًا - الرضا برزق الله القائل: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (الشورى: ٤٩).

والإنسان لا يدري أين يكون الخير فلعل الخير كل الخير في البنات؛ قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ (النساء: ١١)، وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وربما كانت البنت سببًا لسعادة والديها وأقاربها في الدنيا والآخرة، وربما كان الولد سببًا في تعاسة آبائه وشقاوتهم والعياذ بالله[١]، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ (الكهف: ٨٠)، فهذا الغلام لو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرا.

وعن عائشة ﵂ قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منها تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار»[٢].

وعن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال[٣] جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو» وضم أصابعه[٤].

---

(١) انظر «فقه تربية الأولاد» للعدوي (ص٣٧).
(٢) رواه البخاري (٥٩٩٥)، ومسلم (٢٦٣٠) واللفظ له.
(٣) عال: أي قام عليها بالنفقة والتربية والصبر ونحو ذلك.
(٤) رواه مسلم (٢٦٣١).

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن فأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كنَّ له حجابًا من النار يوم القيامة»**[١].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويكفيهن ويرحمهن فقد وجبت له الجنة البتة»**، فقال رجل من القوم: واثنتين يا رسول الله؟ قال: **«واثنتين»**[٢].

فهذه بعض فضائل تربية البنات هل تجد مثلها للأبناء، فإذا لم تجد فاعلم أن في البنات قد يكون صلاح دينك فارضَ بما قسم الله لك وارضَ برزق الله؛ فلعل البنات أقرب لك نفعًا في الدنيا والآخرة.

وقد جُبِل النبي ﷺ على الحنو والشفقة على البنات وقد تقدم كيف كان النبي ﷺ يرحب بابنته فاطمة ويقبلها ويجلسها في مكانه وحمله لأمامة بنت ابنته في الصلاة، وملاطفته لأم خالد بنت خالد، وعن عائشة ﷺ قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: **«مرحبًا يا ابنتي»**، ثُمَّ أجلسها عن يمينه ــ أو عن شماله ــ ثُمَّ أسَرَّ إليها حديثًا فبكت فقلتُ لها: لِمَ تبكين؟ ثُمَّ أسرَّ لها حديثًا فضحكت، فقلتُ: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حُزن فسألتها عمَّا قال فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ حتى قُبض النبي ﷺ فسألتها فقالت: أسرَّ إليَّ **«أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حَضَرَ أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي»**، فبكيتُ، فقال: **«أما ترضين أن تكوني سيدة نساءِ أهل الجنة أو نساء المؤمنين»** - فضحكت لذلك[٣].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٦)، وابن ماجه (٣٦٦٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٤).

(٢) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٠٢٦).

(٣) رواه البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠).

وأما عطف البنات على أمها وأبيها وأهل بيتها فصفحات التاريخ تؤيد ما أودع الله فيهن من عاطفة نبيلة وإليك طرفًا من ذلك:

دخل عمرو بن العاص على معاوية ﷺ وعنده ابنته عائشة فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: تفاحة القلب، قال: انبذها عنك؟ قال: ولِمَ؟، قال: لأنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن، فقال: لا تقل ذلك يا عمرو، فوالله ما مَرَّض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الأحزان مثلهن، وإنك لواجد خالاً قد نفعه بنو أخته فقال له عمرو: ما أعلمك إلا حببتهن لي»[1].

ومن طريف ما يذكر أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ أراد قتل أحد الخارجين عليه فانتهى الخبر إلى ابنة له صغيرة، فجاءت حتى قامت بين يدي معاوية ونشأت تقول:

معاوي لا تقتل أبًا كان مشفقًا ** ** علينا فنبقى إن فقدناه شُرَّدا
وتؤتم أولاد صغار بقتله ** ** وإن تعف عنه كنت بالعفو أسعدا
معاوي هبه اليوم لله وحده ** ** وللباكيات الصارخات تلدُّدا
معاوي منك العلم والحلم والتقى ** ** وكنت قديمًا يا ابن حرب مُسددا

فعجب معاوية وأصحابه منها، ودمعت عيناه، ووهبه لها»[2].

وعاش يزيد بن زبيبة الشيباني دهرًا طويلاً حتى لحق زمن الحجاج وسعى مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاج، وورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان يأمره بقتله، فلما دعا به قال: أيها الأمير اتق الله بسبع عشرة نسوة أو تسع عشرة نسوة ليس لهن قَيِّم غيري.

فأمر الحجاج بإحضارهن، فلما حضرن سألهن الحجاج عن شأنهن، فما منهنَّ امرأة إلا وهي تقول: اقتلني ودعه.

---

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٧٣).
(٢) «المحاسن والمساوئ» (ص٥٦١).

فقامت بنية له صغيرة فبكت بكاءً حارًا، موجعًا محرقًا، وأنشأت تقول:

أحجاج إما أن تجود بنعمة ** علينا وإما أن تقتلنا معا

أحجاج كم تفجع به إن قتلته ** ثلاثًا وعشرًا واثنتين وأربعا

فَمَنْ رجلٌ دانٍ يقوم مقامه ** علينا فهلا لا تزدنا تضعضعا

فرحمه الحجاج، وكتب إلى عبد الملك يسأله العفو عنه، فأجابه إلى ذلك وأطلقه»[1].

---

(١) المرجع السابق (ص٥٦١).

جفاف المشاعر في الحياة الزوجية

الحياة الزوجية من أجلِّ النعم وأعظمها فعلينا أن نحوطها بسياج من الرعاية، والمودة والرحمة وحسن المعاشرة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء:١٩).

قال ابن كثير - رحمه الله -: «﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي: طيِّبوا أقوالكم لهن وحَسِّنوا أفعالكم وهيئتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة:٢٢٨)».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»**[١].

وكما أن البيوت تقوم على المودة والرحمة وذلك فضل من الله يتفضل به على عباده، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم:٢١).

فإن دمار البيوت يبدأ من جفاف المشاعر نتيجة الذنوب والمعاصي، وضعف الإيمان، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى:٣٠)، ولجفاف المشاعر في الحياة صور كثيرة؛ فمن جهة الزوج:

صور من جفاف مشاعر الزوج مع زوجته:

١ - قلة الصبر على الزوجة وغض الطرف عن زلاتها:

من الناس من جفت مشاعره فيعامل زوجته معاملة الرجال متناسيًا أن الضعف ملازم للمرأة؛ فهي مخلوق ضعيف وجنس لطيف تحبه النفوس، وتتعلق به، وتأنس

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٤١٦٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٥).

إليـه، وهذا المخلوق العـجيب يحـمل من المشـاعـر الدافقـة، والعـواطف الكامنة، والأحاسيس الدافئة والحنان المتجدد الذي لا نهاية له مما يجعل الحياة جميلة بوجوده.

فمن أجل هذا وغيره أمر الرجال بالوصية بالنساء والصبر عليهن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خُلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**»[(١)].

والمعنى أن المرأة خلقت من ضلع، وهو إشارة إلى خلق حواء كان من ضلع آدم وقوله: «**وإن أعوج ما في الضلع أعلاه**»، أي: أن أعوج ما في المرأة لسانها، وفائدة هذه المقدمة أن المرأة خلقت من ضلع أعوج فلا ينكر اعوجاجها، أو الإشارة إلى أنها لا تقبل التقويم كما أن الضلع لا يقبله»[(٢)].

وقوله: «**فإن ذهبت تقيمه كسرته**»، أي: إن أصررت على تقويم أخلاقها، فإن ذلك لن يستقيم لك بحال، وإصرارك يفضـي إلى كسرها وهو طلاقها ويؤيده ما جاء في رواية مسلم: «**إن المرأة خُلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوجٌ، وإنْ ذَهَبْتَ تُقيمُها كسرتها، وكسرها طلاقُها**»[(٣)].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «وفي هذا الحديث ملاطفة النساء والإحسان إليهنَّ، والصبر على عوج أخلاقهن، واحتمال ضعف عقولهن، وكراهة طلاقهن بلا سبب، وأنه لا يطمع باستقامتها، والله أعلم»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ١٢).

(٣) رواه مسلم (١٤٦٨).

(٤) «شرح النووي على مسلم» عند شرحه للحديث (٤٦٨).

ولتنظر إلى صبر الأسوة الحسنة والرحمة المهداة ﷺ على نسائه فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام فضربت التي النبيُّ ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: «**غارت أمكم**» ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها فدفع الصحفة إلى التي كُسرت صحفتها وأمسك المسكورة في بيت التي كسرت»[١].

هكذا عالج النبي ﷺ الموقف بحكمة وهدوء؛ فإذا رأى أحدنا من زوجه بعض ما لا يرضيه مما لا يمس العرض والشرف فعليه أن يذكر إلى جانب ذلك صفاتٍ أخرى تعجبه منها.

وإلى هذا أرشدنا النبي ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَفْرَكْ**[٢] **مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر**»[٣].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «إنه لا ينبغي أن يبغضها؛ لأنه إن وجد فيها خلقًا يُكره وجد فيها خلقًا مرضيًا، بأن تكون شرسة الخلق لكنها ديِّنة أو جميلة أو عفيفة أو رفيقة به أو نحو ذلك والله أعلم»[٤].

للصبر حدود: إنه لا يعني الصبر على المرأة أن نترك لها الحبل على الغارب عندما يصدر منها خطأ لا يمكن السكوت عنه لكن توجه بالتي هي أحسن للتي هي أقوم[٥].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٥). (٢) لا يفرك: أي لا يبغض.

(٣) رواه مسلم (١٤٦٩). (٤) «شرح النووي» للحديث (١٤٦٩).

(٥) يجب بذل النصيحة للمرأة مع اجتناب النصيحة وقت غضب أي منهما، فإذا كانت المرأة غضبةً فالنصيحة قد لا تؤتي أكلها وقد لا تجد طريقها إلى قلبها، وربما خلتْ النصيحة تسفيهًا لها، وما يقال للرجل يقال للمرأة، والأصل في ذلك ما جاء في «صحيح البخاري» (١٧٥٨)، ومسلم (١٧١٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يقضين القاضي بين اثنين وهو غضبان**». =

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: حكيت للنبي ﷺ رجلاً، فقال: **«ما يسرني أني حكيتُ رجلاً وإنَّ لي كذا وكذا»**، قالت: فقلتُ: يا رسول الله، إن صفية امرأة وقالت بيدها هكذا: كأنها تعني قصيرة، فقال: **«لقد مَزَجْتِ بكلمةٍ لو مُزِجَ بها ماء البحر لمُزِجَ»**[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أتيت النبي ﷺ بخزيزةٍ[(٢)] قد طبختها له فقلت لسودةَ - والنبي ﷺ بيني وبينها -: كلي، فأبت فقلت: لتأكلن أو لألطِّخَنَّ وجهك، فَأَبَتْ فوضعت يدي في الخزيزة فطليت وجهها، فضحك النبي ﷺ فوضع بيده لها وقال لها: **«الطخي وجهها»**، فضحك النبي ﷺ فمرَّ عمر فقال: يا عبد الله، يا عبد الله فظنَّ أنه سيدخل فقال: **«قوما فاغسلا وجوهكما»**، فقالت عائشة: فمازلت أهاب عُمر لهيبة رسول الله ﷺ»[(٣)].

٢ - *الإكثار من عتاب الزوجة:*

عتاب الزوجة في كل صغيرة وكبيرة دليل على نضوب المشاعر كما أن التغاضي والتغافل دليل على سمو النفس وأريحيتها.

فحري بالرجل النبيل تجنب العتاب فَرُبَّ شر هاج أوله العتاب، وإن كان ولابد فليكن العتاب عتابًا رقيقًا دون أن يكرر ذلك على مسمع الزوجة وليكن - أيضًا - في بعض الأمور التي تستحق العتاب دون بعض.

= وما ذاك إلا لأن الغضب يحدث نوعًا من الإغلاق على العقل، وانظر إلى تصرف النبي ﷺ مع إحدى نسائه التي كسرت الصحفة وهي غضبىٌ فلم ينصح لها وقت غضبها؛ لكنه قد نصح لها بعد ذلك، كما في رواية أخرى وانظر - أيضًا - إلى الحديث الآتي بعد هذا حيثُ نصح عائشة بترك الغيبة ولم تكن حينئذ في حالة غضب كما يفهم ذلك من سياق الحديث.

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٣٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٠٣٤).

(٢) نوع من الحلوى.

(٣) حسن: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٤٩).

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ (التحريم: ٣).

فالرسول ﷺ حدث بعض أزواجه بحديث وأوصاها أن لا تخبر به أحدًا فذهبت وأخبرت به، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما كان من أمرها، فلما جاء العتاب ما عاتبها رسول الله ﷺ بل كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾.

وهذا من كرمه وحلمه وعفوه وحسن معاشرته لأهله، وليقتدي به الناس من بعده ﷺ.

من اليوم تصالحنا ونطوي ما جرى منا

فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا

فقد قيل لنا عنكم كما قيل لكم عنا

فإن كان لابد من العتاب فبالحسنى

٣ - ضعف الغيرة على الزوجة:

الغيرة مشتقة من تغيُّر القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص وأشد ما يكون ذلك بين الزوجين[١].

وهي عاطفة سامية، وخلق حميد، ومظهر من مظاهر الرجولة، ودليل على تدفق المشاعر الزوجية، وتدل - أيضًا - على قوة الإيمان ورسوخه في القلب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن يَغَارُ، والله أشد غيرًا**»[٢].

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٣٢٠)، و«التعريفات» للجرجاني (ص١٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٧٦١).

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال سعد بن عُبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غيرَ مُصْفِحٍ[١]، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«تعجبون من غيرة سعدٍ والله لأنا أغير منْهُ، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرَّم الله الفواحِشَ ما ظهر منها وما بطن»**[٢].

وقد تكون الغيرة في النساء أشد؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، فقالت: فَغِرْتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: **«ما لَكِ يا عائشة! أغِرْتِ؟»**، فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلكَ؟[٣].

وعنها رضي الله عنها قالت: افتقدت النبي ﷺ[٤] ذات ليلةٍ فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فَتَحَسَّسْتُ[٥] ثم رجعت، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: **«سُبحانَكَ وبحمدك لا إله إلا أنت»**، فقلت: بأبي أنتَ وأمي إني لفي شأنٍ[٦]، وإنك لفي آخر»[٧].

وعنها رضي الله عنها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة[٨] فارتاح لذلك[٩]، فقال: **«اللهم هالَةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ»**،

(١) أي غير ضارب بصفح السيف وهو جانبه، بل أضرب بحده.
(٢) رواه البخاري (٧٤١٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٩٩).
(٣) رواه مسلم (٢٨١٥).
(٤) **افتقدت**: أي لم أجده.
(٥) **فتحسستُ**: أي تطلبته.
(٦) **إني لفي شأن**: تعني أمر الغيرة.
(٧) **وإنك لفي آخر**: تعني من نبذ متعة الدنيا والإقبال على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.
(٨) **فعرف استئذان خديجة**: لشبه صوتها بصوت أختها فتذكر خديجة بذلك.
(٩) **فارتاح لذلك**: أي هش لمجيئها وسر بها لتذكره بها خديجة وأيامها، وفي هذا دليل لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب.

فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[١]، هلكت في الدَّهر فأبدلك الله خيرًا منها»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه، فطارت القُرْعَةُ على عائشة وحفصة، فخرجتا معه جميعًا، وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل، سار مع عائشة يتحدث معها، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين بعيري وأركب بعيرك فتنظرين وأنظر؟ قالت: بلى.

فركبت عائشة على بعير حفصة، وركبت حفصة على بعير عائشة، فجاء رسول الله ﷺ إلى جَمَلِ عائشة وعليه حفصةُ فسَلَّمَ ثُمَّ سار معها، حتى نزلوا فافتقدته عائشة فَغَارَتْ، فلما نزلوا جَعَلَتْ تجعلُ رِجْلَهَا بَيْنَ الإِذْخِرِ[٣]، وتقول: يا ربِّ! سَلِّطْ عليَّ عَقْرَبًا أو حيَّةً تَلْدَغُنِي، رَسُولُكَ، ولا أستطيع أن أقُولَ له شيئًا»[٤].

وعنها رضي الله عنها قالت: «كنت أغارُ على اللاتي وهَبْنَ أنفسهنَّ لرسول الله ﷺ وأقول: وتَهَبُ المرأة نَفْسَها؟ فَلَمَّا أنزلَ الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ (الأحزاب: ٥١)، قالت: قُلْتُ: والله! ما أرى ربَّك إلا يُسارعُ لك في هواك[٥]»[٦].

---

(١) حمراء الشدقين: معناه عجوز كبيرة جدًا.

(٢) رواه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧) واللفظ له.

(٣) الإذخر: نبات معروف توجد فيها الهوام غالبًا في البرية.

(٤) رواه البخاري (٥٢١١)، ومسلم (٢٤٤٥) واللفظ له.

(٥) ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك: معناه يخفف عنك ويوسع عليك في الأمور ولهذا خيَّرك.

(٦) رواه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤) واللفظ له.

والغيرة أساس بقاء المشاعر حية متدفقة؛ وتنقسم إلى قسمين:

١ - محمودة: وهي إذا كانت في محلها.

٢ - مذمومة: وهي التي تكون في غير محلها.

ودليل ذلك حديث جابر بن عتيك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله؛ فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة، وأما التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة»**[1].

وقد تدفق مشاعر الرجل نحو زوجته فيغار حتى من ذكر اسمها فيكني عنها بالبيت أو الأهل أو بعض الناس حتى لا يعرضها لألسنة السوء وهذا لا يلام عليه.

وأُنزِّهُ اسمكِ أن تمُرَّ حروفُه ... من غيرتي بمسامع الجلاسِ

فأقول: بعض الناس عنك كنايةً ... خوفَ الوشاة وأنت كلُّ الناسِ

٤ - *البخل على الزوجة:*

لجفاف المشاعر والتقتير على الأهل والأولاد نسب فأينما وجد أحدهما وجد الآخر، فعلى المرء أن ينفق على أهله بحدود الطاقة وبقدر الاستطاعة؛ فإن البخل من شر خصال الرجال فما من بخل إلا وراءه حق مضيع.

وليعلم الزوج أن المال الذي رزقه الله إنما هو رزقه ومن له عليهم ولاية، ولو شاء الله لسلبه منه ولجعل المنة لهم عليه، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٥٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٠٥).

وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ (الطلاق: ٧).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: **«اتقوا الله في النساء فإنهن عوان[١] عندكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»**[٢].

بل إن الإسلام أذن للزوجة أن تأخذ من مال زوجها ما يكفيها وولدها بالمعروف، ولاسيما إذا كان الزوج بخيلاً عليها؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قالت هِنْدُ أُمُّ معاوية لرسول الله ﷺ: إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ، فهل عليَّ جُناحٌ[٣] أن آخذ مِنْ مَالِهِ سِرًّا؟، قال: **«خُذي أنتِ وبنوك ما يكفيكِ بالمعروف»**[٤].

فيالله ما أقبح البخل وما أعظم أثره وإني لأستحب للرجل أن لا يزوج ابنته من بخيل فالبخل بعيد عن أهل الصلاح وهم بعيد عنه.

قال حبيش الثقفي: «قعدتُ مع أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والناس متوافرون فأجمعوا أنَّهم لا يعرفون رجلاً صالحًا بخيلاً».

قلتُ: وأنا لا أجد امرأة تعيش مع بخيل في سعادة إلا أن تكون مثله في البخل وجفاف المشاعر، ولله در أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز ـ رحمهما الله ـ حين قالت: «أفٍّ للبخيل، لو كان البخل قميصًا ما لبسته، ولو كان طريقًا ما سلكته».

---

(١) عوان: جمع عانية وهي الأسيرة.

(٢) رواه مسلم (١٢١٨).

(٣) جناح: أي ذنب وإثم.

(٤) رواه البخاري (٢٢١١) واللفظ له، ومسلم (١٧١٤).

ولأن كان البخل بغيضًا مع سائر الناس فهو أشد بغضًا مع الأهل والأولاد، وكيف يبخل المرء عن أداء ما أوجب الله عليه إذا لم يعرف بالشهامة؟!

وآمِرَةٍ بالبُخْلِ قُلْتُ لَهَا اقْصري ... فليس إلى ما تأمُرِينَ سَبِيلُ

أرى النَّاسَ خُلان الجُودِ ولا أرى ... بخيلاً له في العالمين خليلُ

وإني رأيتُ البُخْلَ يُزري بأهْلِهِ ... فأكرمتُ نفسي أن يُقالَ بخيلُ

٥ ـ قلة التزين للزوجة:

الرجل صاحب المشاعر الدافئة يحب من زوجته أن تتزين له ولم ينس هو الآخر أن يتزين لها ويتجمل فهو يعلم أنها تحب منه الذي يحبه منها.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله جميلٌ يُحبُّ الجَمَالَ**»[١].

قال ابن عباس: «إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي»[٢].

وقال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي: أتيتُ محمد بن الحنفية فخرج إليَّ في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية[٣]، فقلتُ: ما هذا؟ قال: إن هذه الملحفة ألقتها عليَّ امرأتي ودهنتني بالطيب، وإنهن يشتهين منا ما نشتهيه منهنَّ»[٤].

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٥/ ٩٧).

(٣) **الغالية**: نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وورد ودهن.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٩٧).

٦ ـ عدم إعفاف الزوجة:

الرجل الذي يسعى لإعفاف زوجته بدافع المشاعر الدافقة والعواطف الكامنة والأحاسيس الدافئة يتمتع برجولة كاملة؛ لأن الحب بين الأزواج من شيم الكمال.

وكم من مشكلة تثار في البيوت إما من الرجل وإما من المرأة ويكون وراءها امتناع الآخر من الجماع[١]، فالمرأة بحاجة إلى الإشباع العاطفي والنفسي، والرجل كذلك فهو طفل كبير كما يقال في المثل، فإذا تم لهما ذلك سكنت النفوس ـ بإذن الله ـ وهدأت الأعصاب وارتاح البال.

وقد حث النبي ﷺ على الجماع ورغب فيه وبين أن فيه الأجر، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضع[٢] أحدكم صدقة»**[٣].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له ـ وقد قدما من سفر ـ: **«أما إنك قادم فإذا قدمت فالكيس الكيس[٤]»**[٥].

وكان رسول الله ﷺ يطوف على نسائه كلهن في الليلة الواحدة؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من

---

(١) هذا أمر معلوم لدى أهل العلم قديمًا وحديثًا، فالمرأة تأخذها الغيرة لأتفه الأسباب، والرجل إذا دعا زوجته فلم تجبه يجد ذلك في نفسه فيصبح نشازًا، فتنصرف المرأة لتكدير عيشه وينصرف الرجل لتجاهلها أو الانتقام لنفسه، وللشيطان من ذلك نصيب، وما يعقلها إلا العالمون.

(٢) **وفي بُضع احدكم صدقة:** ـ بضم الباء ـ يطلق على الجماع ويطلق على الفرج.

(٣) رواه مسلم (١٠٠٩).

(٤) **الكيس الكيس:** فسره أهل العلم بالجماع وبعضهم فسره بالولد.

(٥) رواه البخاري (٢٠٩٧)، ومسلم (٧١٥).

الليل أو النهار وهنَّ إحدى عشرة نسوة، قال قتادة: أو كان يطيقه، قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين»(١).

وإعفاف الزوجة حق واجب لها على زوجها؛ فعن عون بن أبي حجيفة، عن أبيه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداء متبذِّلة(٢)، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ، قال: فإنِّي صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نَمْ، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نَمْ، فلما كان في آخر الليل، قال سلمان: قُم الآن، فصليا، فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعْط كل ذي حق حقه»، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: **«صَدَقَ سَلْمَانُ»**(٣).

وها هي امرأة تشكو زوجها إلى عمر ؓ لتقصيرها في الفراش.. فعن قتادة قال: «جاءت امرأة إلى عمر فقالت: زوجي يقوم الليل، ويصوم النهار، قال: أفتأمريني أن أمنعه قيام الليل وصيام النهار؟، فانطلقت، ثُمَّ عاودته بعد ذلك، فقالت له مثل ذلك، وردَّ عليها مثل قولها الأول! فقال له كعب بن سور: يا أمير المؤمنين! إن لها حقًا، وقال: وما حقها؟ قال: أحلَّ له أربعًا، فاجعل لها واحدة من الأربع، لها في كل أربع ليال ليلة، وفي أربعة أيام يومًا، قال: فدعا عمر زوجها؟ وأمره أن يبيت معها من كل أربعة ليال ليلة، ويفطر في كل أربعة أيام يومًا»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٦٨).

(٢) **مبتذِّلة**: أي تاركة للبس الزينة وفي هذا الحديث دليل أن المرأة إذا كان زوجها حاضرًا أن تتزين وهذا هو المشهور في نساء الصحابة، دل على ذلك إنكار سلمان على أم الدرداء تبذلها بقوله لها: ما شأنك؟، حيث رآها رثة الهيئة.

(٣) رواه البخاري (١٩٦٨).

(٤) **صحيح**: أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ١٤٩)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٢٠١٦).

٧ ـ قلة التودد للزوجة:

بعض الناس قد لا يتودد لزوجته إلا عندما يكونان على الفراش، وهذا يدل على جفاف المشاعر ونضوبها.

فليس ترك التودد للزوجة من أخلاق الرجل النبيل بل الرجل النبيل من يتودد لزوجته في كل وقت وحين، وكلما وجد فرصة لذلك، فالمرأة عاطفية بطبعها تحمل من المشاعر الدافقة والعواطف الكامنة والأحاسيس الدافئة والعطاء المتجدد الذي يجعل الحياة تشع بالجمال والجلال.

وإن اللبيب ليجد أن دمار البيوت تبدأ من جفاف المشاعر، كما أن البيوت التي يجد أهلها من الإشباع العاطفي والنفسي تقل فيها المشاكل، وإن وجدت فالدفء العاطفي والنفسي كفيل بحلها بعد توفيق الله.

ولننظر إلى أخلاق النبي ﷺ مع أهله وكيف كان جميل العشرة دائم البِشر، يداعب أهله ويلاطفهم ويتودد إليهم.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جاريةٌ لم أحمل اللحم، ولم أَبْدُن، فقال للناس: **«تقدموا»**، فتقدموا ثم قال لي: **«تعالي حتى أسابقك»**، فسابقته فسبقته، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبَدُنتُ، ثُمَّ قال: **«تعالي حتَّى أسابِقَكِ»**، فسابَقْتُهُ فسبقني، فجعل يضحك وهو يقول: **«هذه بتِلْكَ»**[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل الحبشة المسجد يلعبون فقال لي: «يا حميرا، أتحبين أن تنظري إليهم؟» فقلت: نعم، فقام بالباب وجئته فوضعتُ ذقني على عاتقه

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٢٦٤).

فأسندت وجهي إلى خده، قالت: ومن قولهم يومئذ أبا القاسم طيبًا[١]، فقال رسول الله ﷺ: «حسبك؟!»[٢]، فقلت: يا رسول الله لا تعجل، فقام ثم قال: «حسبك؟!!»، فقلت: لا تعجل يا رسول الله، قالت: وما لي حب النظر إليهم، ولكني أحببت أن يبلغ النساء مقامه لي ومكاني منه[٣]»[٤].

وكان النبي ﷺ يحث بعض الصحابة على الزواج بالأبكار من أجل التودد والمداعبة.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له: **«أتزوجت؟»** قلت: نعم، قال: **«أبكرًا أم ثيبًا»**، قال: قلت: بل ثيبًا، قال: **«فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك»**[٥].

وكان ﷺ يقول: **«ليس من اللهو إلا ثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله»**.

بل إن الإسلام أباح الكذب بين الزوجين الذي يجلب المودة والمحبة كأن يبالغ في وصف محبته لها أو تبالغ في وصف محبتها له، أو يبالغ في وصف جمالها، أو تبالغ في وصف رجولته.

---

(١) أي: من الأغاني التي يتغنون بها.

(٢) حسبك: أي هل يكفيك.

(٣) أي: يعرف النساء - تعني أزواجه - منزلتي عند رسول الله ﷺ وبمثل هذا ونحوه يستحب حتى تعرف الضرة منزلة ضرتها عند زوجها حتى تحترمها لاحترام زوجها ويحرم إذا كان بغير ذلك، كأن تدعي الضرة أن لها عند زوجها من الحظوة ما ليس عندها، ففي صحيح البخاري (٥٢١٩) من حديث أسماء رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرة فهل عليَّ جناح أن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني، فقال رسول الله ﷺ: **«المتشبع بما لم يعطَ كلابس ثوبي زور»**.

(٤) **صحيح**: أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٩٥١)، وصحح ابن حجر إسناد هذه الرواية، انظر «الفتح» (٢/ ٤٤٤).

(٥) أخرجه البخاري (٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥).

فعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل الكذب إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته يرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس»**[١].

قال النووي - رحمه الله -: «وأما كذبه لزوجته وكذبها؛ فالمراد به إظهار الود والوعد مما لا يلزم ونحو ذلك، فأما المخادعة في منع ما عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها فحرام بإجماع المسلمين، والله أعلم»[٢].

مشاعر الزوج قبل الزواج وبعده[٣]:

هذه القصيدة تحكي مشاعر الزوج قبل الزواج وبعده، وهي تحكي حال كثير من الناس اليوم:

قَبْلَ الزَّواجِ يَكُونُ المرءُ مُحْتَرِقًا
عَلَى التي بِهَوَاهَا[٤] قَلْبُهُ عَلِقَا

والصَّبُّ[٥] في قَلْبِهِ نَارٌ مُؤَجَّجَةٌ
وإنْ يكُونْ عِنْدَ مَنْ يَهْوَاهُ قد دَنَقَا[٦]

لَوْ حَالَ[٧] دُونَ[٨] المُنَى[٩] طَوْدٌ[١٠] لحَاوَلَ أنْ
يكونَ بالفِعْلِ ذَاكَ الطود مُخْتَرِقَا

وكُلَّمَا غَلَقُوا بابًا يَمُرُّ بِهِ
سَعَى لكي يَفْتَحَ البابَ الذي غُلِقَا

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٠٢٠)، وقال الألباني - رحمه الله - في «صحيح الترمذي» (١٥٨٢): صحيح دون قوله: «ليرضيها»، وانظر «الصحيحة» (٥٤٥).

(٢) شرح النووي على مسلم (٥/ ٤٦٥).

(٣) لأسعد رستم.

(٤) بهواها: بعشقها وحبِّها.

(٥) الصَّبُّ: بالفتح - المُحِبُّ المُشْتَاقُ.

(٦) دَنَقَ: تَتَبَّعَ دقائق الأمور.

(٧) حَالَ: حَجَزَ.

(٨) دُونَ: بالضم - قَبْلَ.

(٩) المُنَى: الأماني والأحلام.

(١٠) طَوْدٌ: الطود - بالفتح - الجَبَل العظيمُ.

تَـراهُ يُنْفِـقُ أمــــوالاً قــــضى زمـنًا
مِنَ الجَـبِينِ علَيْـهَـا يَسْكُبُ العَـرَقَـا
ويَهْجُـرُ الأهْلَ والأصْحَـابَ أجْـمَـعَـهُمْ
لكي يكونَ بهـا فِي الحُبِّ مُلْتَـصِـقَـا
يَقْـضِي النَّهَـارَ ولا شـغلٌ لَدَيْهِ سِـوَى
ذِكْـرَى الحَبِـيبِ وَيَقْـضِي لَيْلَهُ أرِقَـا[(١)]
وقَـدْ يموتُ، وكَمْ صبٍّ صـبـابتُـهُ[(٢)]
جَنَتْ عَلَيْـهِ، فَـمَـا أبْقَتْ لَهُ رَمَـقَـا[(٣)]
لَوْ أنَّهـا سَـألَتْـهُ حـاجَـةً لجَـرى
كـالسَّيْلِ مُنْدَفِـقًا، والسَّهْمِ مُنْطَلِقًا
وَكَمْ تَبَـسَّمَ مَـسْـرُورًا بِطَلْعَـتِـهَـا
وكَمْ تَنَهَّدَ مُشْـتَـاقًـا، وكَمْ شَـهِـقَـا[(٤)]
وَقَـدْ يَغَـارُ عليْـهَـا إنْ هِي التَـفَـتَتْ
إلى سِـواهُ، فَـيُـمْـسي بالُهُ قَلِقَـا
يَشْـري لهـا كُلَّ مـا تَهْـوَاهُ مِنْ تُحَفٍ
يشـري الأسَـاوِرَ، والأطْوَاقَ[(٥)] والحَلَقَـا
حَـتَّى إذَا وَهَبَـتْـهُ قَلْبَـهَـا، فَـغَـدا[(٦)]
زَوْجًـا لهـا، وعَلى صِدْقِ الوَلا[(٧)] اتَّفَـقـا
قَلَّتْ مَـحَـبَّـتُـهُ للحَـالِ، وانْقَلَبَتْ
بُغْـضًـا، ولم يَبْقَ من ذكـرٍ لما سَبَـقَـا

(١) الأرَقَ: بفتحتين ـ السَّهَرُ.
(٢) الصَّبابةُ: بالفتح ـ حرارة الشَّوْق.
(٣) الرَّمَقُ: بفتحتين ـ بَقِيَّةُ الروح.
(٤) شهق: تردد البكاء في صَدْرِهِ.
(٥) الأطواق: جمع طوْقٍ ـ بالفتح ـ وهو حليٌّ للعُنُقِ.
(٦) غدا: صار.
(٧) الوَلا: أي الولاء، وهو الحُبُّ.

كـــــــأنَّـهُ لَـمْ يَـنَـلْ مِـنْ دَهْـرِهِ أرَبَـا
لأجْلِهِ قَلْبُـهُ الوَلْهـانُ[١] قـد خَـفَـقَـا[٢]

كَـأنَّمـا لَمْ يَطِبْ نَفْـسًـا بزوْجَـتِـهِ
كَـلاً وَلَمْ يَقْـتَـرِنْ يَوْمًـا ولا عَـشِـقَـا[٣]

فَـصَـارَ يشـتُـمـهَـا ظُلمًـا، ويلْطمُـهـا
ورُبَّمـا ـ وقتَ غَـيْظِـ ـ رأسَـهَـا سَـحَـقَـا[٤]

أقَلُّ حَـــادثَةٍ مِنْهَـــا تُهَـــيِّـــجُـــهُ
حَـتَّى إذا عـــارَضَتْ قَـــوْلاً لَهُ حَنِقَـــا

يُـريدُ مِنْهَـــا طَعـــامًـــا إنْ تَأخَّـــرَ عَنْ
مِـيـعَـادِهِ لحْظَةً في وجْـهِـهَـا بَصَـقَـا

كَـأنَّمـا هِيَ مِنْ بَعْضِ العَـبِـيـدِ لَهُ
والعَـبْـدُ فِي هَذِهِ الأيَّامِ قَـدْ عُـتِـقَـا[٥]

يَغِـيبُ عَنْ بَيْـتِـهِ لَيْـلاً فَـيَـتْـرُكُـهـا
وَحِـيْـدَةً فَـتُـقَـاسِي وَحْـدَةً وَشَـقَـا

حَـــتَّى إذا سَـــألَتْـــهُ: أين كَـــانَ؟ أبَى
رَدَّ الجـوابِ عَلَيْـهَـا، والعَـصَـا امْـتَـشَـقَـا[٦]

يـقُـــولُ قَـــوْمِي ـ أيا بِنْتَ الكِلابِ ـ إذًا
وقَطِّبي[٧] بَنْطلُونَا لِي؛ فَـقَـدْ مُـزِقَـا

اجْلِي[٨] اطْبُخِي، كنِّسِي، هيَّا احملي وَلَدًا
فَـــإنَّـهُ يُـقْلِقُ الجِـيْـرَانَ إنْ زَعَـقَـا

---

(١) الوَلْهان: الحائر الحزين.
(٢) خفق القلب خَفَقَانًا: اضطَرَبَ.
(٣) سَحَقَ الشيء: دَقَّهُ.
(٤) حَنِق: اشْتَدَّ غَيْظُهُ.
(٥) عُتِقَ: أُخرِجَ عَن الرِّقِّ والعُبُوديَّة.
(٦) امتَشَقَ: اختَلَسَ، والاختلاسُ أخْذُ الشيء بُسرْعة.
(٧) قطِّبي: اجمعي ما تمزَّقَ منه بالمِخْيَط.
(٨) اجلي: نظِّفي.

وهكذا تَسْتَمِرُّ الحال بَيْنَهُما
وربما - بَعْدَ هذا كُلِّه - افْتَرَقا
بئْسَ الزَّوَاجُ زواجٌ لا وِفَاقَ بِهِ[(١)]
ولا بَقَاءَ بلا حُبٍّ يُعِدُّ[(٢)] بَقا
المَرْءُ يَطْلُبُ رِزقًا لَيْسَ يَمْلِكُهُ
حتَّى إذا نَالَهُ لَمْ يرضَ ما رُزِقَا

جفاف مشاعر الزوجة نحو زوجها:

من الأزواج من تكون لديه زوجة رائعة الجمال لكنها خاوية المشاعر جامدة العواطف، غليظة الكلام لا تفهم شيئًا من لغة القلوب، ولا تفقه أمرًا من المشاعر الدافئة وينتج عن ذلك أمور كثيرة فمنها:

صور من جفاف مشاعر الزوجة:

١ - ترك التزين لزوجها:

من جفاف مشاعر الزوجة ترك التزين لزوجها فلا تلبس الملابس الجميلة، ولا تتعاهد بدنها بالنظافة، ولا تراعي ما يروقه من الروائح الطيبة.

وقد كانت النساء يستعرن القلائد والثياب للتزين بها للأزواج على عهد رسول الله ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها «أنها استعارتْ من أسماء قلادة[(٣)]»[(٤)].

وعن عبد الواحد بن أيمن قال: دخلتُ على عائشة رضي الله عنها وعليها درع قِطْر ثمنه خمسة دراهم فقالت: ارفع بصرك إلى جارتي فإنها تُزهي (أي تألف وتتكبر) أن تلبسه في البيت وقد كان لي منهن درع على عهد رسول الله ﷺ، فما كانت

---

(١) **الوفاق:** بالكسر - الموافقة. (٢) يُعِدُّ: يُهَيِّئُ.

(٣) **القلادة:** هي العقد والعقد كل ما يعقد ويعلق في العنق من ذهب ونحوه.

(٤) رواه البخاري (٣٣٤)، ومسلم (٣٦٧).

امرأة تُقيّن (أي تتزين) بالمدينة إلا أرسلت إليَّ تستعيره»، والمرأة التي تتزين لزوجها تسره إذا نظر إليها وتملأ عينيه وقلبه بمحاسنها فلا يتطلع لغيرها فكأنه لا يوجد امرأة في الدنيا سواها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ: أي النساء خير؟ قال: **«التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله»**[(١)].

٢ ـ *الامتناع على الزوج إذا دعاها للفراش:*

من مراعاة مشاعر الزوج، بل من الحقوق الواجبة على الزوجة نحو زوجها إذا دعاها إلى فراشه أن لا تظهر التأوه والإعياء والتشاغل، بغية صرف الزوج نظره عنها فإن هذا يدل على جفاف المشاعر وبرود العاطفة، ويدل ـ أيضًا ـ على جهل الزوجة وقلة بصيرتها بالعواقب اللهم إلا أن تكون مجهدة أو مريضة، وقد حذر النبي ﷺ المرأة من الامتناع عن فراش زوجها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا دَعَا الرَّجُلُ امرأتَهُ إلى فِرَاشِهِ[(٢)] فَأَبَتْ أن تجيئَ لَعَنَتْهَا الملائكَةُ حتَّى تُصْبِحَ[(٣)]»**[(٤)].

وفي رواية: **«والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتَّى يرضى عنها»**[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٢٨).

(٢) الفراش كناية عن الجماع.

(٣) قال ابن حجر كما في كتاب «النكاح» من الفتح: «والمعنى أن وقوع اللعن يقع إن بات غضبان عليها فبذلك يتحقق ثبوت معصيتها بخلاف ما إذا لَمْ يغضب من ذلك فإنه يكون إما لأنه عذرها، وإما لأنه ترك حقه من ذلك» اهـ.

(٤) رواه البخاري (٥١٩٣)، ومسلم (١٤٣٦).

(٥) رواه مسلم (١٤٣٦).

وعن طلق بن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا الرَّجُلُ دَعَا زوجَتَهُ لحَاجَتِهِ فلْتَأتِهِ، وإن كانت على التَّنُّورِ[(١)] [(٢)]».

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «فإذا كان لا يسعها مخالفة زوجها، والامتناع عنه وهي على هذه الحال، فكيف يسعها مخالفته فيما سوى ذلك من الأحوال»[(٣)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى امرأة فأتى زينب وهي تمعسُ منيئة[(٤)] لها فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان[(٥)]، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه»[(٦)].

قال النووي ـ رحمه الله ـ في شرح الحديث: «قال العلماء: إنما فعل هذا بيانًا لهم وإرشادًا لما ينبغي لهم أن يفعلوه، فعلمهم بفعله وقوله، وفيه: أنه لا بأس بطلب الرجل امرأته إلى الوقاع في النهار وغيره، وإن كانت مشتغلة بما يمكن تركه؛ لأنه ربما غلبت على الرجل شهوة يتضرر بالتأخير في بدنه أو في قلبه أو بصره . . والله أعلم»[(٧)].

قلت: إن امتناع المرأة على الزوج في مثل هذه الحالة تسبب له الضرر وربما وقع في الفتنة، وما أكثر الفتن في زماننا وربما ذهب يبحث له عن زوجة أخرى يعف نفسه وهذا لا يلام عليه.

---

(١) **وإن كانت على التنور:** أي وإن كانت تخبز على التنور.

(٢) **صحيح:** أخرجه الترمذي (١١٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٩٢٧).

(٣) «نيل الأوطار» (٦/ ٦٣١).

(٤) **تمعس منيئة:** أي تدلك الجلد تمهيدًا لدباغته.

(٥) أي شبهها بالشيطان في الوسوسة والدعاء إلى الشر.

(٦) رواه مسلم (١٤٠٣) وفي رواية الترمذي: فإن معها (أي امرأته) مثل الذي معها، أي فرجًا مثل فرجها ويسد مسدها، قالها المباركفوري في «شرح الترمذي» (٤/ ٢٢).

(٧) «شرح النووي على مسلم».

٣ ـ عدم شكر المعروف:

من جفاف مشاعر الزوجة عدم شكر زوجها على إحسانه لها مهما قل، وهذا لا يحسن ولا يجمل.

فالمرأة العاقلة ـ حقًا ـ هي من تشكر زوجها على القليل والكثير بل وتظهر السرور والابتهاج والدعاء لزوجها، وتثني عليه بخير، وهي تعلم أن شكرها لزوجها إنما هو جزء من شكرها لمولاها الذي أجري لها الخير على يدي زوجها وتعلم أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس كان من عاداته كفران نعمة الله؛ دل على ذلك قول رسول الله ﷺ: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[١].

وها هو إبراهيم الخليل يمتحن نساء إسماعيل ثم يقول لمن سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيق وشدة.. فشكت إليه، قال لها: «فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يُغَيِّرْ عتبة بابه»، ويقول لمن سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: «فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يُثبت عتبة بابه»[٢].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨١١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٠٦٢).

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٣٣٦٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: أوَّل ما اتخذ النساءُ المنطق من قبل أم إسماعيل... الحديث إلى أن قال: «فجاءَ إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثُمَّ سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحنُ بشرٌ، نحنُ في ضيقٍ وشدَّةٍ فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجُكِ فاقرئي عليه السلام وقولي له يُغَيِّرْ عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشُنَا، فأخبرتُهُ أنَّا في جهدٍ وشدَّةٍ، قال: فهل أوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقولُ غَيِّر عتبة بَابِكَ، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أُفارِقَكِ، الحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى. فَلَبِثَ عنهم إبراهيم ما شاء الله ثُمَّ أتاهم بَعْدُ فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، =

فـإبراهيم ﷺ لما رأى من الزوجـة الأولى من الشكوى الذي يدل علـى كفـران النعم؛ أوصاها تقول لزوجها يغير عتبة بابه.

وسمى المرأة بعتبة الباب لقيامـها بحفظ البيت وصونها، ولما رأى من المرأة الثانية التحدث بنعـمة الله ما يدل على شكرها[١]؛ أوصاها تقول لزوجها أن يـثبت عتبة بابه أي: يمسكها، وذلك بعد أن دعا لهما بالبركة.

فليس من صفـات الزوجة العاقلة كفـر النعم بل الزوجة العاقلة مـتى سئلت عن زوجهـا أثنت على ربها، وتذكـرت نعمه، ورضـيت قسمـته، فالقناعـة كنز الغني، والشكر قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة، فإذا لزم الإنسان الشكر درت نعمه وتَرَّت، فمتى لم ترَ حـالك من مزيد فاستـقبل الشكر؛ كيف وقد قال الله ـ سـبحانه وتعالى ـ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧).

بل يحسن بالزوجة أن تشكر ربها إذا نزل بها ما تكرهه؛ شكرًا لله على ما قدره، وكظمًا للغيظ، وسترًا للشكوى، ورعاية للأدب»[٢].

ومن حق الزوج عليها أن تعـترف بشكره فإن جحود فضل الزوج سـماه الشارع كفرًا، ورتب عليه الوعيد الشديد، وجعله سببًا لدخول النار.

= فقالت: نحن بخـير وسعةٍ وأثنت على الله، فقـال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قـال: ما شرابكم؟ قالت: الماء، قـال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء»، قـال النبي ﷺ: «ولم يكن ولو كان لهـما حب لدعا لهم فـيه»، قال: فـهما لا يخلو عليـهما أحـد بغير مكة إلا لم يوافـقاه، قال: فـإذا جاء زوجُكِ، فاقرئي عليـه السلام ومُريه يثبت عتبـة بابه، فلما جاء إسماعـيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شـيخ حسن الهيـئة وأثنت عليه فسـألني عنك فأخبـرته أنك بخير قال: فـأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك...

(١) من شكر النعم التحدث بها لقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١).

(٢) انظر «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١٩٩)، وانظر أيضًا: «فقـر المشاعر» للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد (ص٢٧).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت النار ورأيت أكثر أهلها النساء»**، قالوا: لِمَ يا رسول الله؟ قال: **«يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان؛ لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط»**[1].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر زوجها وهي لا تستغني عنه»**[2].

وعن أسماء ابنة يزيد الأنصارية رضي الله عنها قالت: مرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا وجوارٍ أترابٌ لي؛ فسلم علينا وقال: **«إياكنَّ وكفرَ المُنَعمين»**، وكنتُ من أجرئهن على مسألته، فقلتُ: يا رسول الله وما كفر المنعمين؟، قال: **«لعل إحداكن تطول أَيْمَتُها من أبويها، ثم يرزقها الله زوجًا، ويرزقها ولدًا، فتغضب الغضبة، فتكفر، فتقول: ما رأيت منك خيرًا قط»**[3].

---

(١) رواه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٦).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٩١٣٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٩).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٨٠٠).

جفاف المشاعر مع الأرحام

من الناس من لا يصل رحمه إلا في المناسبات فلا يصلهم ببره، ولا يمدهم بإحسانه، ولا يسأل عنهم أو يتعاهدهم بالسلام وطيب الكلام.

وإن حصل بينهم لقاء فإنما يكون عند موت قريب أو زواج حبيب، وهذا من التقصير الكبير.

فضل صلة الرحم:

إن للأرحام حقًا واجبًا[1]، وإن كانوا كفارًا أو فجارًا أو مبتدعةً، فهم وصية الله لنا فقد أوصانا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهم خير وصية، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ (النساء: ٣٦)، **وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ:** ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ (البقرة: ٨٣)، **وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ:** ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٧٥).

فانظر ـ أخي ـ كيف قرن ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ بين توحيده وصلة الرحم وما ذاك إلا لأهمية هذا الحق وفضلاً عن ذلك فإن قطيعة الرحم من كبائر الذنوب والقاطع ملعون في كتاب الله.

---

(١) قال النووي ـ رحمه الله ـ في «شرح مسلم» (٨/ ٤٨٥١): قال القاضي عياض: «لا خلاف أن صلة الرحم واجبةٌ في الجملة وقطيعتَها معصيةٌ كبيرةٌ والأحاديث تَشْهَدُ لهذا، ولكنَّ الصِّلَةَ درجاتٌ بعضها أرفع من بعضٍ، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة فمنها واجب، ومنها مستحب، ولو وصله بعض الصلة، ولم يصل غايتها لا يُسمَّى قاطعًا، ولو قصر عمَّا يقدر عليه وينبغي له لا يسمَّى واصلاً».

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (محمد: ٢٢-٢٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتَّى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟ قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد: ٢٢-٢٤)»[١].

وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أخبرني بعملٍ يُدْخلني الجنَّة؟ قال القوم: «مَا لَهُ، مَا لَهُ»، قال رسول الله ﷺ: «أرب ماله؟»[٢]، قال: «تَعْبُدُ الله، ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتَصلُ الرَّحِمَ».

وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بالعَرْشِ تقولُ: مَنْ وصلني وصَلَهُ الله، ومن قطعني قطعهُ الله»[٣].

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه»[٤].

إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على أهمية صلة الرحم وعلو شأنها، ومما يسفر عن جفاف المشاعر بين الأرحام ما يأتي:

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠٢)، ومسلم (٢٥٥٤) واللفظ له.
(٢) أرب ماله: يعني حاجة له.
(٣) رواه البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٣).
(٤) رواه البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥).

صور من جفاف المشاعر تجاه الأرحام:

١ ـ الصلة للمكافئة:

الواصل المكافئ لا يكون واصلاً لرحمه وإنما الواصل الكامل من وصل رحمه ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه، وسواء وصله أرحامه أو قطعوه، وأعظم الصلة صلة ذي الرحم القاطع كما أن أعظم الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح[١].

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس الواصل بالمكافئ[٢]، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها»[٣][٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلُمُ عنهم ويجهلون عليَّ! فقال: «لئن كُنْتَ كما قلت فكأنما تُسفُّهُمُ الملَّ[٥] ولا يزال معك من الله ظهير[٦] ما دُمت على ذلك»[٧].

قال النووي ـ رحمه الله ـ في شرح هذا الحديث: «وهذا تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم ولا شيء على هذا المحسن بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه.

---

(١) **الكاشح:** هو الذي يكون بينه وبين أرحامه عداوة أو حقد.

(٢) **المكافئ:** هو الذي يصل من وصله ويكافئ بقدر الصلة فمثل هذا لا يسمى واصلاً كاملاً.

(٣) قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في «الفتح» (١٢/ ٣٢): «هم ثلاث درجات: مواصل ومكافئ وقاطع، فالواصل من يتفضل ولا يتفضل عليه، والمكافئ الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ، والقاطع الذي يتفضل عليه ولا يتفضل».

(٤) رواه البخاري (٥٩٩١).

(٥) **المل:** هو الرماد الحار، ومعنى تُسفهم الملَّ أي: تطعمهم الرماد الحار.

(٦) **الظهير:** المعاون.

(٧) رواه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

وقيل في معناه: «إنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم؛ من الخزي والحقارة عند أنفسهم كمن يسف المل، وقيل ذلك الذي يأكلون من إحسانك كالمل يحرق أحشاءهم والله أعلم»[١].

ولله در المقنع الكندي حيث يقول:

وإنَّ الذي بيني وبين بني أبي ۞★۞ وبين بني عمي لمختلف جدا

إذا قدَّحوا لي نار حرب بزندهم ۞★۞ قدحت لهم في كل مكرمة زندا

وإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن ۞★۞ هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهم ۞★۞ وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

وأعطيهم جلَّ مالي إذا كنت واجدا ۞★۞ وإن قل مالي لم أكلفهم رفدا

٢ ـ *عدم العطف على الأرحام:*

الصلة في حقيقتها هي العطف والرحمة[٢]، والرجل النبيل من يعطف على أرحامه ويحنو عليهم.

فعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أهل الجنَّة ثلاثةٌ: ذو سلطانٍ مقسطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيالٍ»[٣].

---

(١) «شرح النووي على مسلم» عند شرحه لحديث رقم (٢٥٥٨) من صحيح مسلم.

(٢) جاء في «مقاييس اللغة» (٢/٤٩٨)، و«الصحاح» (٥/١٩٢٩): «الرَّحِمُ لُغَة: اسْمٌ مُشتق من مادَّة (ر ح م) التي تدل على الرِّقة والعطف والرَّأفة، والرَّحِمُ (علاقة) القرابة، وقد سميت رَحِمُ الأُنثى رَحِمًا مِنْ هذا؛ لأنَّ مِنها ما يكُونُ ما يُرْحَمُ ويُرَقُّ لَهُ مَنْ وَلَد، والرَّحْمَةُ والرُّحْمُ: الرِّقَّةُ، والتعطُّفُ».

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥).

وعن عروة بن الزبير قال: «ذهب عبد الله بن الزبير مع أناس من بني زهرة[١] إلى عائشة وكانت أرَقَّ شيءٍ عليهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ».

٣ ـ قلة التعارف بين الأرحام:

بعض الناس يتفرقون في المدن والقرى ويحصل التناسل والانتشار بين الأسرة الواحدة فلا يكلفون أنفسهم التواصل فيما بينهم فضلاً عن التعارف، ولاشك أن ذلك من التقصير في حق ذوي الحق ويدل على جفاف المشاعر بل ونضوبها.

وقد حث النبي ﷺ على تعلم الأنساب من أجل الصلة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل[٢] مثراة في المال منسأة في الأثر»[٣].

قال المباركفوري ـ رحمه الله ـ: «قوله: «تعلموا من أنسابكم»، أي: من أسماء آبائكم وأجدادكم وأعمامكم وأخوالكم وسائر أقاربكم، «ما»، أي: قدر ما، «تصلون به أرحامكم»، فيه دلالة على أن الصلة تتعلق بذوي الأرحام كلها لا بالوالدين فقط، كما ذهب إليه البعض، والمعنى: تعرفوا أقاربكم من ذوي الأرحام؛ ليمكنكم صلة الرحم، وهي التقرب لديهم والشفقة عليهم والإحسان إليهم»[٤].

---

(١) في هذا دليل على أن القرابة تشمل القبيلة بأسرها وسواء كان ذلك من جهة النسب أو المصاهرة فإن أم النبي ﷺ كانت من بني زُهرة.
ويتأيد ذلك بقول رسول الله ﷺ في «صحيح مسلم» (٢٥٤٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مِصْرَ، وهي أرض يُسَمَّى فيها القيراطُ فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلِهَا فإنَّ لَهمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا»، فقوله: «ورحمًا»، وذلك بكون هاجر أم إسماعيل منهم، وكذلك مارية القبطية فهم أخوال إبراهيم ولده.

(٢) محبة في الأهل: أي مظنة للحب وسبب للود في أهل الرحم.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٠٦٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٦).

(٤) «تحفة الأحوذي بشرح الترمذي» للمباركفوري (٥/ ٣٩٠).

قلتُ: قد تقدم ما يدل على أن القرابة تشمل القبيلة بأسرها، وهو حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون مِصْرَ وهي أرض يُسَمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإنَّ لهم ذِمَّةً وَرَحِمًا»[1].

وسيأتي مزيد بيان حول هذا الباب.

٤ ـ قلة التنادي بين الأرحام بالأسماء المحبوبة:

كما أنه من جفاف المشاعر التنادي بين الأرحام بالأسماء المجردة، فإن من دفء المشاعر التنادي فيما بينهم بالأسماء المحبوبة، يا عم! يا خال! يا ابن العم! يا ابن الخال! يا ابن الأخت... إلخ.

فهذه الأسماء وأمثالها تنزل رحمة على قلب من تناديه وتشعره بالود وتذكر بالرحم وتجعله يأنس لك ويرتاح.

والأسرة مهما تباعدت فهم أرحام، والتنادي بهذه الأسماء المحبوبة سنة سنها لنا رسول الله ﷺ؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وُلد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم»[2].

فانظر كيف جعل النبي ﷺ إبراهيم الخليل أبًا له فهو أبوه وإن علا وكما يقال في الأب يقال في العم وابن العم، وما يقال في العم وابن العم يقال ـ أيضًا ـ في الخال وابن الخال.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أقبل سعد (أي: سعد بن أبي وقاص) فقال النبي ﷺ: «هذا خالي فليرني امرؤ خاله»، قال أبو عيسى الترمذي ـ رحمه الله ـ:

---

(١) قوله وَرَحِمًا: وذلك بكون هاجر أم إسماعيل منهم.
(٢) رواه مسلم (٢٣١٥).

وكان سعد من بني زُهرة، وكانت أم النبي ﷺ من بني زهرة؛ لذلك قال النبي ﷺ: «هذا خالي»[١].

٥ ـ قلة المواساة:

المواساة بين الأرحام لها عظيم الأثر في توطيد العلاقات وجلب المودة ونشر المحبة، وللمواساة صور فأحيانًا تكون المواساة بالمال، وأحيانًا تكون بالجاه والشفاعات، وأحيانًا تكون بالبدن والخدمة، وأحيانًا تكون بالنصيحة والإرشاد، وأحيانًا تكون بالدعاء والاستغفار، وأحيانًا تكون بالتوجع والتألم، وأحيانًا تكون بالتسرية عنه وإذهاب الهموم والأحزان وإدخال السرور والفرح، وو . . . إلخ[٢].

وجميل أن تقوم بما تستطيع من ذلك وما تطيق وأنت هاش باشٌ، فإن إمساك المعروف مع الانبساط خير من بذله مع الانقباض، فإذا كان الانقباض قبيحًا مع كل أحد فهو مع ذي الرحم أشد قبحًا، وما يعقلها إلا العالمون.

ومواساة الأرحام أداء لبعض الحق، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ حاثًا على إيتاء الأقربين حقوقهم: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الروم: ٣٨).

وعن جابر رضي الله عنه أنه قال: أعتق رجلٌ من بني عُذرة عبدًا له عن دُبُرٍ[٣] فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أَلَكَ مَالٌ غَيْرُهُ؟»، فقال: لا، فقال: «مَنْ يَشْتَرِيهِ مِنِّي؟»، فاشتراه نُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ العَدَوِي بثمانمائة درهم فجاء بها رسول الله ﷺ فَدَفَعَهَا إليه، ثُمَّ قال: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عليها، فإنْ فَضَلَ شيءٌ فلأهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٤٠١٨)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٦١١٨).

(٢) انظر: «فقه الأخلاق» للعدوي (٢/ ٢٣٣).

(٣) عن دُبُر: أي علق عتقه بموته، فقال: أنت حر يوم أموت.

أَهْلِكَ شيءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فإنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شيءٌ، فهكذا وهكذا» يقول: «فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك»[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها أخبرته أنها أعتقت وليدةً ولم تستأذن النبي ﷺ فلمَّا كان يَوْمُهَا الذي يدُورُ عليها فيه قالت: أَشَعَرْتَ يا رسول الله أني أعتَقْتُ وليدتي؟ قال: «أوفَعَلْتِ؟» قالت: نعم، قال: «أَما إنَّكِ لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوالَكِ كَانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكِ»[(٢)].

وعن زينب رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقْنَ يا مَعْشَرَ النِّسَاءِ! وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ» قالت: فرجعتُ إلى عبد الله، فقلت: إنَّك رجُلٌ خفيفُ ذات اليَدِ[(٣)] وإن رسول الله ﷺ قَدْ أَمَرنا بالصَّدَقَة، فَأْته فاسأَلْهُ، فإنْ كان ذلك يجزي عني وإلاَّ صرَفْتُها إلى غَيْرِكُمْ، فقال عبد الله: بل ائْتِه أنْتِ، قالت: فانطلقت فإذا امرأةٌ من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجَتُها، قالت: وكان رسول الله ﷺ قَدْ أُلقيت عليه المهابَةُ، قالت: فَخَرَجَ علينا بلالٌ فَقُلْنَا لَهُ: ائت رسول الله ﷺ فأَخْبِرْهُ أنَّ امرأتَيْنِ بِالبَابِ تسألانكَ: أتجزي الصَّدَقَةُ عَنْهُمَا على أزواجهِمَا وَعَلَى أيتامٍ في حُجُورِهِمَا[(٤)]، ولا تُخْبِرْهُ مَنْ نَحْنُ، قالت: فَدَخَلَ بلالٌ على رسول الله ﷺ فسأله رسول الله ﷺ: «مَنْ هُمَا؟» فقال: امرأة من الأنصار وزينبُ، فقال رسول الله ﷺ: «أيُّ الزَّيَانِبِ؟» قال: امرأة عبد الله[(٥)]، فقال رسول الله ﷺ: «لَهُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ القرابة وأَجْرُ الصَّدَقَةِ»[(٦)].

---

(١) رواه البخاري (٧١٨٦)، ومسلم (٩٩٧) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٢٥٩٢)، واللفظ له، ومسلم (٩٩٩).

(٣) خفيف ذات اليد: كناية عن الحاجة.

(٤) حجورهما: الحجور جمع حجر ـ بالفتح وبالكسر ـ وهو الحضن، يقال: فلان في حجر فلان أي في كنفه وحمايته.

(٥) عبد الله: هو عبد الله بن مسعود، وهو أي عبد الله متى أطلق اسمه بين الصحابة فابن مسعود وهو المقصود باتفاق علماء الحديث والسير فلا يحمل هذا الاسم أحد بعده أفضل ولا أعلم منه، والله أعلم.

(٦) رواه البخاري (١٤٦٢) من حديث أبي سعيد، ومسلم (١٠٠٠) واللفظ له.

والحديث دل على أن الصدقة على القرابة لها أجران، أجر القرابة وأجر الصدقة، ويتأيد بحديث سلمان بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقةٌ وهي على ذي الرَّحِمِ ثنْتَانِ، صَدَقَةٌ وصلة»[(١)].

وإن تعجب فعجب لأناس بينهم قرابة وبينهم جوار[(٢)]، ولسان حال القريب المجاور:

فياليتك إذ لم ترع حق قرابتي ❊ فعلت كما الجار المجاور يفعل

وأفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح الذي يطوي كشحه على العداوة ويتباعد عنك؛ فعن كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح[(٣)]»[(٤)].

قال السفاريني - رحمه الله -: «ينبغي للعاقل أن يبادر إلى صلة ذي الرحم الكاشح، وأن يدفع ما عنده من الضغن والبغضاء بالإحسان والإغضاء، وأن يقتل شيطان حقده وحسده بسهام بره وموالاته وتفقده، كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤).

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٥/ ٩٢)، والترمذي (٦٥٨)، وقال: حسن، وابن ماجه (١٨٤٤) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٥٣١).

(٢) قال العلماء: الجيران ثلاثة؛ جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق؛ فالجار الذي له ثلاثة حقوق هو الجارُ المسلم ذو الرَّحِمِ فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرَّحِمِ، وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك».

(٣) جاء في «لسان العرب» (١٢/ ٩٩)، مادة كشح: «الكاشح: العدوُّ الذي يضمر عداوته ويطوي عليها كشحه أي باطنه، والكَشْحُ: الخصر».

(٤) صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ٤٠٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأقره المنذري (٢/ ٣٣)، وهو كما قال، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٤٣)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» (٨٩٢).

فكيف بالحميم الذي هو قريب؟

ثم قال: وعلى كل حال الإحسان والمودة يقلبان العداوة صداقة بلا محال»[١].

قلت: لله دره من إمام فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها.

ومن طريف ما يذكر أنه لما قعد أبو حنيفة للناس وكان كثيرًا ما يستعمل القياس فضاق مساور الوراق بالقياس ذرعًا فقال:

كُنَّا مِنَ الدِّين قبل اليوم في سَعَةٍ ٭ حتَّى بُلينا بِأَصْحَابِ المقَايِيسِ
قَوْمٌ إذا اجتمعوا صاحُوا كأنَّهُمُ ٭ ثَعَالِبُ ضَبَحتْ بَيْنَ النَّواوِيسِ[٢]

فبلغ قوله أبا حنيفة، فبعث إليه بمال، فقال مُساور حين قبض المال:

إذا ما النَّاسُ يومًا قايَسُونا ٭ بآبِدَةٍ من الفُتْيَا طَرِيفَة
أتيناهم بِمِقْيَاسٍ صحيحٍ ٭ مُصيبٍ من طِرَازِ أبي حنيفة
إذا سَمِعَ الفَقِيهُ بِهَا وَعَاها ٭ وأثبتها بحبرٍ في صحيفة[٣]

وعن الحسن بن أبان قال: «بلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه، فبعث إليه بكُسوة، فلما كان بعد ذلك مدحه الأعمش، فقيل له: كيف تذمه ثُمَّ تمدحه؟ قال: إن خيثمة حدثني عن عبد الله قال: إن القلوب جُبِلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها»[٤].

---

(١) «غذاء الألباب» (١/ ٢٧٦).

(٢) أي: لقد كنا في رحبة وفسحة في دين الله إذ إنه ميسور لا عسر فيه، حتَّى جاء أهل القياس فضيقوا واسعًا وأفسدوا المجامع.

(٣) «روضة العقلاء» لابن حبان (٣٩٦).

(٤) المرجع السابق (ص٣٩٧).

٦ - تخلي الرجل عن الصلة عندما يكون معسرًا:

وهذا من الخلل الكبير وهو - أيضًا - من تلبيس إبليس على الواصل حتى أن الرجل المعسر ليحتجب عن أرحامه لسنوات طوال كما قيل:

سأحجب عن أسرتي عند عسرتي ☆ وأبرز إليهم إذا أصبت رخاءَ

فحري بالمرء أن يستدرك على نفسه، فإن الزيارة واللطف والسلام أقل ما تحصل به صلة الرحم، وإنما يصيب بالحرج والانقباض من لم يخلص[١].

فعن سويد بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُلوا أرحامكم ولو بالسلام»[٢]، ومعنى «بُلُّوا» أي: نَدُّوها بصلتها، وهم يطلقون النداوة على الصلة، كما يطلقون اليبس على القطيعة[٣].

وقد ذكر العلماء عند تناولهم لحديث رسول الله ﷺ: «ولكن لهم رحم سأبلها ببلالها»[٤].

فالرحم شبهت بالجلد الذي إذا ترك يابسًا صعبُ عليك وشق عليك تحريكه، أما إذا بللته بالماء، وتابعت ذلك، سهل عليك وأصبح لينًا في يديك، وهكذا الرحم، فإذا كنت تصل أقرباءك وتهدي إليهم وتتفقد أحوالهم وتسأل عنهم، وتشاركهم أحزانهم وأفراحهم، فإنهم والحال هذه يستمعون إليك إذا حدثتهم ويقبلون منك إذا نصحتهم، لعلمهم بحنوك عليهم وشفقتك بهم وحرصك على وصالهم.

---

(١) لا ينبغي للمسلم أن يمكن الشيطان من وضع الحواجز والعوائق بينه وبين أرحامه سواء كان ذلك بسبب إعساره أو لعداوة.. إلخ، بل عليه أن يتوجه إلى الله بعمله ويصل رحمه ولو بالسلام، عسى الله أن يجعل له من المهابة والقبول جزاء صبره واحتسابه ويجعل من بعد عسرٍ يسرا.

(٢) صحيح: أخرجه وكيع في «الزهد» (٢/ ٧٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٧٧).

(٣) «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٣٨٠).

(٤) رواه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥) من حديث عمرو بن العاص.

أما إذا هجرتهم وقطعتهم؛ فإنهم لا يعبأون بك ويُلقون لقولك بالاً، ولا يعيرون نصحك اهتمامًا، فبهذا يظهر شيء من فضلِ مَن وصل[١].

وعن المرُّودي - رحمه الله - أنه قال: «أدخلتُ على أبي عبد الله (أحمد بن حنبل) رجلاً من الثغر فقال: لي قرابة (بالمرغة) ترى لي أن أرجع إلى الثغر، أو ترى أن أذهب فأسَلِّمَ على قرابتي؟ فقال له: (استخر الله)، واذهب فَسَلِّمْ عليهم»[٢].

وقال مثنى: قلتُ له (أي لأحمد بن حنبل): الرجل يكون له القرابة من النساء فلا يقومون بين يديه بأي شيء يجب عليه من بِرِّهم، وفي كم ينبغي أن يأتيهم؟ قال: اللُّطف والسلام»[٣].

وقال ابن جرير - رحمه الله -: «صلةُ الرَّحِم هي أداءُ الواجب لها من حقوق الله التي أوجب لها، والتلطف عليها بما يحقُّ التعطُّف به عليها»[٤].

٧ - تخلي الرجل عن الصلة عندما يكون موسرًا:

بعض الناس يكون موسرًا فيأنف من صلة أرحامه والتودد إليهم ويرى في نفسه أنه أولى أن يُزار ولا يزور وهذا باب من أبواب الكبر وأبوابه الغامضة كثيرة.

والكبر يكسب المقت عند الله والناس، ويوغر صدور الأرحام، فعلى من رزقه الله مالاً أن يتواضع لله الذي رزقه ويحمد الله على توفيقه له، ويجتهد أن يصل رحمه باللطف والسلام والزيارة وتعاهدهم بالإحسان إليهم وقبول أعذارهم والصفح

(١) انظر «فقه الأخلاق» للعدوي (٢/ ٢٢٣).
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٤٥٢).
(٣) المرجع السابق (١/ ٤٥٢).
(٤) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١/ ١٤٤).

عنهم، ونسيان معايبهم، ولو لم يعتذروا، والتواضع ولين الجانب لهم، وبذل المستطاع لخدمتهم بماله وجاهه ،وترك المنة عليهم ،والبعد عن مطالبتهم بالمثل، وأهم من ذلك كله الصبر عليهم وسعة الصدر لهم واحتساب الأجر عند الله ولو لم ينل منهم شيئًا.

فإن صلة الرحم تزيد في الأرزاق والأعمار، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «من أحبَّ أن يبسط له في رزقه وينسأ[(١)] له في أثره[(٢)] فليصل رحمه»[(٣)].

———— ◆◆◆ ————

(١) ينسأ: أي يؤخر.
(٢) اثره: أي أجله.
(٣) رواه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

جفاف المشاعر مع الجيران

لقد أوصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالجار خير وصية؛ فقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (النساء: ٣٦).

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «مازال جبريل يوصيني بالجار حتَّى ظننتُ أنه سيورِّثه[١]»[٢]، إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على أهمية حق الجار.

ولقد جفت مشاعر كثير من الناس تجاه الجيران بشكل ملفت، وله صور فمنها:

صور من جفاف المشاعر مع الجيران:

١ ـ عدم الإحسان إلى الجار:

الإحسان إلى الجار من مكارم الأخلاق، بل إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة بسبب منعه معروفه.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كم من جارٍ متعلِّقٍ بجاره يوم القيامة، يقول: يا ربِّ! هذا أغلَقَ بابَهُ دُوني، فمَنَعَ معروفَهُ»[٣].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائعٌ»[٤].

---

(١) سيورثه: أي سيبلغني من الله الأمر بتوريثه.

(٢) رواه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤).

(٣) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١١)، وقال الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٨١): حسن لغيره.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٢)، وقال الألباني في «الصحيحة» (١٤٩): صحيح.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماء المرقة وتعاهد جيرانك»[١].

والكريم حقًا من يكرم جاره بحدود الطاقة وبقدر المستطاع ولو بالكلمة الطيبة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[٢]، وفي رواية: «فليحسن إلى جاره»[٣].

ومن جميل ما قيل في الإحسان إلى الجار وتعاهده بالطعام ما قاله حاتم الطائي:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ** ويا ابنة ذي البردين والفرس الوَرْدِ
إذا ما عملتِ الزادَ فالتمسي له ** أكيلاً فإني لستُ آكله وحدي
أخًا طارقًا أو جارَ بيتٍ فإنني ** أخاف مَذَمَّات الأحاديث من بعدي
وكيف يسيغ المرء زادًا وجارُه ** خفيفُ المِعَى بادي الخصاصة والجهدي[٤]

٢ - إيذاء الجار:

من الناس من عنده جفاف في مشاعره، فلا يبالي بحقوق الجار فتراه يؤذي جاره تارة بالسخرية منه، وتارة بإيذائه لأولاده، أو التجسس على حريمه، والجلوس في طريق دون إعطاء الطريق حقها من غض البصر.. إلى غير ذلك من صور الإيذاء.

وربنا - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ (الحجرات: ١١).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٦٨).
(٢) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).
(٣) رواه مسلم (٤٧).
(٤) «بهجة المجالس» (١/ ٢٩٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن من لا يأمَنُ جاره بوائقه»[١] [٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره»[٣].

والأدلة في تحريم إيذاء الجار كثيرة، بل إن حفظ الجار وعدم إيذائه من أسباب دخول الجنة، كما أن إيذاء الجار من أسباب دخول النار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله! إنَّ فلانة تقوم الليل وتصوم النهار، وتفعلُ وتصدَّقُ، وتؤذي جيرانها بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: «لا خيرَ فيها، هي مِنْ أهلِ النار»، قالوا: وفلانةٌ تُصلِّي المكتوبة، وتصدَّق بأثوار[٤]، ولا تؤذي أحدًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي مِنْ أهل الجنَّة»[٥].

فانظر أخي إلى عاقبة إيذاء الجار، ولو لم يكن في عدم إيذاء الجار إلا حفظ المروءة لكان خليق بالكريم أن ينأى بنفسه عن إيذاء جيرانه فكيف وفيه السلامة وحميد العاقبة.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

«فما أحدٌ منا بمهدٍ لجاره ... أذاةً ولا مُزْرٍ به وهو عائدُ
لأنَّا نرى حقَّ الجوارِ أمانةً ... ويحفظه الكريم المعاهدُ»

---

(١) بوائقه: أي شروره.

(٢) رواه البخاري (٦٠١٦).

(٣) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٤) أثوار: جمع ثور وهو القطعة العظيمة من الأقط، وهو اللبن الجامد المستحجر، وهو - أيضًا - الجبن المجفف الذي يتخذ من مخيض لبن الغنم.

(٥) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٤٤٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٠).

٣ ـ عدم الصبر على الجار:

الصبر سيد الأخلاق ورفيق الدرب والطريق إلى الإمامة في الدين، وأحق الناس بالصبر الجميل الجار، بل إن الصبر من أعظم حق الجار على جاره.

روى المرُّودي عن الحسن أنه قال: «ليس حسن الجوار كف الأذى، حسن الجوار الصبر على الأذى»[(١)].

ومن الناس من جفت مشاعرهم فتجدهم يضيقون من جارهم لأدنى هفوة، وهذا لا يحسن ولا يجمل بل الجار حقه الصبر والتجمل، فذلك من كمال المروءة كما قيل: «مروءة الرجل صدق لسانه، واحتمال عثرات جيرانه، وبذل المعروف لأهل زمانه، وكف الأذى عن أباعده وجيرانه».

والصبر على أذى الجار الحديث عنه ذو شجون، وما أجمل التغافل عن كل ما يصلك من أذى الجار، فذلك طريق إلى العافية والسلامة.

فقد روى البيهقي ـ رحمه الله ـ في مناقب الإمام أحمد عن عثمان بن زائدة قال: العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في التغافل، فحدث به أحمد بن حنبل فقال: «العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل[(٢)]»[(٣)].

أقول لجاري إذا أتاني معاتبًا ** مُدِلاً بحقٍ أو مُدِلاً بباطل

إذا لم يصل خيري وأنت مجاورٌ ** إليك فما شري إليك بواصل

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٦)، و«جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٥٣).

(٢) يعني أن السلامة من أذى الناس تنحصر أسبابها في إظهار الغفلة عن شرورهم وأذاهم يريهم أنه لم يفطن لها.

(٣) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ١٠٤).

٤ ـ عدم تعليم الأولاد حق الجار:

إن من جفاف المشاعر عدم تعليم الأولاد حقوق الجار واحترامه في نفسه وأهله وتقديره وتقدير مشاعره وعدم التعرض لأولاده بالإيذاء.

وحقوق الجار كثيرة لعل أهمها ما ذكرها الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ قال: «وجملة حق الجار أن يبدأه بالسلام، ولا يُطيلُ معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويُهنئه في الفرح، ويظهر الشراكة في السرور معه، ويصفح عن زلاَّته، ولا يتطلَّع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ولا في مصبِّ الماء في ميزابِه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طُرُقَهُ إلى الدَّار، ولا يُتْبِعُهُ النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلامًا، ويغضُّ بصره عن حُرْمَتِهِ، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرْشِدهُ إلى ما يجهله من أمْرِ دينِهِ ودُنْياهُ»[1].

وتعليم الأولاد حقوق الجار دأب السلف والأحاديث في ذلك ذو شجون ومن طريف ما يذكر أن عبد الملك بن مروان قال لمؤدب ولده: إذا روَّيتهم شعرًا فلا تروِّهم إلا مثل قول العجير السلولي:

يَبِينُ الجارُ حين يبين عني[2] ✽ ولم تأنَسْ إليَّ كلابُ جاري[3]
وتضعن جارتي من جنب بيتي ✽ ولم تُسْتَر بستر من جدارِ[4]

---

(١) «الإحياء» (٢/٢١٣).
(٢) أي: يذهب الجار حيثُ شاء.
(٣) أي: إن كلاب الجار لم تانس إليه لعدم تروده إلى بيت جاره.
(٤) أي: إن جارته تخرج من بيتها مرورًا بجوار بيته وتستر بستر فهو من يسترها بغض بصره عنها كما قال عنترة ـ وهو في ديوانه (ص٧٦) ـ:

واغض طرفي ما بدت لي جارتي ✽ حتى يواري جارتي مأواها

وتـأمـن أن أطـالـع حـين آتـي ⁂ عليـهـا وهي واضـعـة الخِـمَـار[١]
كـذلك هـديُ آبـائي قـديمًا ⁂ تـوارثـه النِّجـارُ عن النجـار[٢]

٥ ـ قلة التهادي بين الجيران:

قد يحصل بين الجيران ما يعكر صفو المودة والمحبة، وكثيرًا ما يحصل ذلك نتيجة هفوة أو زلة كما يحصل بين الأقارب لقرب الدار، لهذا كانت المحبة بين الأباعد أثبت والمودة أحمد.

قال ابن عبد البر: «قال رجل لسعيد بن العاص: والله إني أحبك فقال: ولم لا تحبني ولست لي بجار ولا ابن عم؟ كان يقال: الحسد في الجيران والعداوة في الأقارب».

فإذا كان الأمر كذلك فلا شيء يسل سخائم الصدور[٣] ويجدد عهد المحبة والمودة كالهدية؛ وقد حث النبي ﷺ على الإهداء بقوله: «تهادوا تحابوا».

وعن عائشة ﵂ قالت: قلتُ يا رسول الله، إن لي جارين[٤]، فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منكِ بابًا»[٥].

---

(١) أي إنها تأمن من أن أسارقها النظر ولو كانت بغير نقاب، قال بشار بن بشر المجاشعي كما في «بهجة المجالس» (١/ ٢٩١):

وإني لعفٌّ عن زيارة جـارتي ⁂ وإني لمشنوءٌ لديَّ اغتيـابُهـا
إذا غاب عنها بَعْلُها لم أكن لها ⁂ زؤورًا ولم تأنس إليَّ كلابُها
ولم أكن طلابًا أحاديث سرِّها ⁂ ولا عالمًا من أي جنس ثيابها

(٢) «الهداية الإسلامية»، (ص٧٩-٨٠).

(٣) سخائم الصدور وحرها وهي الحقد والحسد والبغضاء والعداوة وسوء الظن فالهدية تذيب ذلك كله كما تذيب الشمس الجليد ولاسيما إذا كانت خالصة لله ولم يتبعها مَنٌّ ولا أذى.

(٤) قد يظن ظان أن الجار ما جاورك في الدار فقط، وليس كذلك بل إن الجار إلى أربعين دارًا ثبت ذلك عن الحسن البصري، أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند حسن (١٠٩)، وحسنه الألباني عن الحسن؛ أنَّه سُئل عن الجار؟ فقال: «أربعين دارًا أمامَهُ، وأربعين خلفَهُ، وأربعين عن يمينه، وأربعين عن يساره».

(٥) رواه البخاري (٢٢٥٩).

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وقوله: «إلى أقربهما منك بابًا» أي أشدهما قربًا، قيل: الحكمة فيه أن الأقرب يرى ما يدخل بيت جاره من هدية وغيرها، فيتشوف لها؟ بخلاف الأبعد، وأن الأقرب أسرع إجابة لما يقع لجاره من المهمات ولاسيما في أوقات الغفلة».

قال ابن أبي جمرة: «الإهداء إلى الأقرب مندوب؛ لأن الهدية في الأصل ليست واجبة فلا يكون الترتيب فيها واجبًا»[1].

٦ ـ رد هدية الجار:

إن رد هدية الجار وعدم قبولها ليس من أخلاق عظماء الرجال، بل العظيم ـ حقًا ـ من يسارع إلى قبول هدية جاره مهما كانت ويثيب عليها[2] إذا قدر، وقد حث النبي ﷺ على قبول الهدية وعدم ردها؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أجيبوا الداعي، ولا تردوا الهديَّة**»[3].

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «زجر النبي ﷺ في هذا الخبر عن تَرْكِ قبول الهدايا بين المسلمين؛ فالواجب على المرء إذا أُهْدِيتَ إليه هديَّة أن يقبلها ولا يردَّها، ثم يثيب عليها إذا قدر، ويشكر عنها، وإني لأستحب للناس بعثَ الهدايا إلى الإخوان بينهم؛ إذ الهدية تُورث المحبة وتُذْهِبُ الضغينة»[4].

وقال ـ أيضًا ـ: «فالعاقل يستعمل مع أهل زمانه لزوم بعث الهدايا بما قدر عليه لاستجلاب محبتهم إيَّاه، ويفارقه تركه مخافة بُغْضِهِم»[5].

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٤٦١).
(٢) روى البخاري في «صحيحه» (٢٥٨٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقبلُ الهدية، ويُثيبُ عليها».
(٣) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٨).
(٤) «روضة العقلاء» (ص٢٤٢).
(٥) المرجع السابق.

إن الهدية حلوة ❊ كالسحر تختلب القلوبا
تدني البعيد من الهوى ❊ حتى تصيره قريبا
وتعيد مضطغن العداوة ❊ - بعد بغضته - حبيبا
تنفي السخيمة[1] من ذوي ❊ الشحنا، وتمتحق الذنوبا[2]

وقال آخر:

هدايا الناس بعضهم لبعض ❊ تولد في قلوبهم الوصالا
وتزرع في القلوب هوىً ووداً ❊ وتكسوك المهابة والجلالا
مصايدُ للقلوب بغير لغَبٍ[3] ❊ وتمنحك المحبة والجمالا[4]

٧ - استقلال هدية الجار واحتقارها:

من التواضع وكمال الأدب قبول الهدية سواء قلت أو كثرت، عظمت أو حقرت، فقد كان النبي ﷺ يقبل القليل كما يقبل الكثير، ويقبل الحقير كما يقبل الخطير.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لو دُعيتُ إلى ذِراعٍ - أو كراعٍ[5] - لأَجَبْتُ، ولو أُهدِيَ إليَّ ذِراعٌ - أو كُراعٌ - لَقَبِلْتُ»[6].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «وخَصَّ الذراع والكُراعَ بالذِّكْرِ ليجمع بين الأمرين: الحقير والخطير؛ لأن الذِّراعَ كانت أحبَّ إليه من غيرها، والكُراع لا قيمة له»[7].

---

(١) السخيمة: الحقد.
(٢) «روضة العقلاء» (ص٢٤٣).
(٣) اللغب: التعب والإعياء.
(٤) «روضة العقلاء» (ص٢٤٤).
(٥) الكُرَاعُ: هو من الدَّابَّة ما بين الركبة إلى الساق، وجمعه كُرُعٌ، وفي المثل: «أعطي العبدُ الكُراع فطمع في الذراع»، يضرب لمن أعطي شيئًا لم يكن يرجوه، فطمعَ في أكثر منه.
(٦) رواه البخاري (٢٥٦٨).
(٧) «فتح الباري» (٥/ ٢٣٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نساء المسلمات، لا تَحقِرَنَّ جارةٌ لجارتِهَا ولو فِرْسِنَ[(١)] شاة»[(٢)].

ومعنى الحديث: لا تحقرن جارة أن تهدي إلى جارتها شيئًا ولو أن تهدي لها ما لا يُنتفع به في الغالب، وإنما حذف المفعول؛ اكتفاء بشهرة الحديث، ولأن المخاطبين يعرفون المراد منه»[(٣)].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «ومعناه: لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها، لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها، بل تجود بما تيسر وإن كان قليلاً كفرسن شاة، وهو خير من العدم، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧).

وقال النبي ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[(٤)].

قال القاضي: «هذا تأويل في الظاهر، وهو تأويل مالك؛ لإدخاله هذا الحديث في باب الترغيب في الصدقة، قال: ويحتمل أن يكون نهيًا للمعطاة عن الاحتقار»[(٥)].

وقال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وقال الكرماني: يحتمل أن يكون النهي للمعطية ويحتمل أن يكون للمُـهدى إليه، قلت: ولا يتم حمله على المهدى إليها بجعل اللام في قوله: «لجارتها»، بمعنى من، ولا يمتنع حمله على المعنيين»[(٦)].

---

(١) الفرسن بكسر الفاء وسكون الراء، وكسر السين ثُمَّ نون: هو العظم قليل اللحم، وهو خف البعير ـ أيضًا ـ وقد يستعار للشاة وهو الظلف، والمقصود بالفرسن في الحديث حافر الشاة، «شرح النووي على مسلم» (٧/ ٩٨).
(٢) رواه البخاري (٦٠١٧)، ومسلم (١٠٣٠).
(٣) «فتح الباري» (١٢/ ٥٨).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٤٠)، ومسلم (١٠١٦).
(٥) «شرح النووي على مسلم» (٧/ ٩٩).
(٦) «فتح الباري» (١٢/ ٥٩).

وقال ـ رحمه الله ـ: «أي لا تحقرن أن تهدي إلى جارتها شيئًا ولو أنها تهدي لها ما لا ينتفع به في الغالب، ويحتمل أن يكون من باب النهي عن الشيء أمر بضده، وهو كناية عن التحابب والتوادد، فكأنه قال: لتوادد الجارة جارتها بهدية ولو حقرت، فيتساوى في ذلك الغني والفقير، وخص النهي بالنساء لأنهن موارد المودة والبغضاء، ولأنهن أسرع انفعالاً في كل منهما»[(١)].

ومن جميل ما قيل في الهدية:

جاءت سُلَيْمَانَ يَوْمَ العرض هُدْهُدَةٌ
أهْدَتْ له من جرادٍ كَانَ في فيها
وأنشدَتْ بلسانِ الحَالِ قائلَةً
إنَّ الهدايا على مقدارِ مهديها
لو كان يُهْدَى إلى الإنسانِ قيمتُهُ
لكانَ يُهدى لك الدنيا وما فيها

وقال آخر:

هديتي تصْغرُ عَنْ همَّتي ⁂ وهمَّتي تَكْبُرُ عَنْ مالي
فَخَالصُ الودِّ ومحض الصَّفا ⁂ افْضَلُ ما يهديه امثالي

◆◆◆

(١) المرجع السابق (١٢/ ٥٩).

جفاف المشاعر مع الحكام

جفاف المشاعر مع الحكام أشـهر من نار على علم، وإن ذلك لكائن في مختلف البلدان، ولا يخلو منه عصر أو مصر لجهل الناس وبُعْد عهدهم بمنهج الأنبياء، وينتج عن جفاف المشاعر مع الحكام أمور منها:

صور من جفاف المشاعر مع الحكام:

١ - عدم توقيرهم:

الحكام أينما كـانوا لهم علينا حقوق كـما لنا عليهم حـقوق، فمن حـقهم علينا التوقير؛ فنوقرهم ونوقر لتوقيرهم كل عامل لهم يعمل بإذن منهم(١).

فعن أبي بكرة ﷺ قـال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «**من أكرم سلطان الله - تبارك وتعالى - في الدنيا؛ أكرمه الله يوم القيامة، ومن أهان سلطان الله - تبارك وتعالى - في الدنيا؛ أهانه الله يوم القيامة**»(٢).

---

(١) إنه يجب علينا أن نقـوم بحقوق الحكام كـاملة غيـر منقوصة، ولو لم يقـوموا بالواجب عليـهم تجاه الرعيـة، فعليهم مـا حُمِّلوا وعلينا ما حُـمِّلنا من الحقوق، فـفي صحيح مـسلم (١٨٤٦) من حديث علقمة بن وائل الحضـرمي عن أبيه قال: سأل سلمة بن يزيد الجعـفي رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله! أرأيت إن قامت علينا أمراءُ يسألونـنا حقهم ويمنعوننا حقَّنا، فما تأمـرنا؟ فأعرض عنه، ثُمَّ سأله فأعرض عنه، ثُمَّ سأله في الثانية أو في الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس وقال: «**اسمعوا وأطيعوا، فإنَّما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلْتُمْ**»؛ أي علينا بما كلفنا به من السمع والطاعـة، فإن قمنا بما يجب علينا يكافئنا الله - سبحانه وتعالى - بحسن المثوبة والأجر.

ويؤيد ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تؤدُّونَ الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم**».

(٢) حسن: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٥/ ٣٧٦).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: عهد إلينا رسول الله ﷺ في خمس من فعل منهنَّ كان ضامنًا على الله: «من عاد مريضًا، أو خرج مع جنازة، أو خرج غازيًا في سبيل الله، أو دخل على إمام يريدُ تعزيره وتوقيره، أو قعد في بيته فيسْلَمَ النَّاسُ منه ويَسْلَم»(١).

٢ ـ *التهاون بأمر السمع والطاعة:*

من جفاف المشاعر التهاون بأمر السمع والطاعة لحكام المسلمين، وهذا من الخلل الفادح والجهل البالغ، فإن السمع والطاعة لحكام المسلمين من غير معصيةٍ مجمعٌ على وجوبه عند أهل السنة والجماعة، والإجماع مبني على النصوص الشرعية.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٩).

قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم، ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم طاعةً لله، ورغبةً فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمُروا بمعصيةٍ، فإن أمروا بذلك، فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق».

ولعلَّ هذا هو السِّرُّ في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول؛ فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومَنْ يطعه فقد أطاع الله، وأمَّا أولوا الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٤١)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٢/ ٤٩٠/ ٤٩١).
(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص١٨٣).

وقد حث النبي ﷺ على السمع والطاعة للحكام في غير معصية الله؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «على المرء المسلم السمعُ والطاعة فيما أحبَّ وكَرِهَ [١]، إلاَّ أن يُؤمر بمعصيةٍ، فإن أُمر بمعصيةٍ، فلا سَمْعَ ولا طاعة» [٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك السَّمْعُ والطاعة، في عُسْرِكَ ويُسْرِكَ، ومنشطِكَ [٣] ومكرهك [٤] وأثرةٍ عليك» [٥].

قال النووي ـ رحمه الله ـ قال العلماء: «معناه يجب طاعة ولاة الأمور فيما يشقُّ وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصيةٍ، فإن كانت معصيةً فلا سمع ولا طاعة».

وقال: «والأثرة الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم، أي: اسمعوا وأطيعوا وإن اختصَّ الأمراء بالدنيا، ولم يصلكم حقكم مما عندهم» [٦].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! إنَّا كنَّا بَشَرٍّ، فجاء الله بخيرٍ، فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شرٌّ؟ قال: «نعم»، قلت: هل وراء ذلك الشرِّ خيرٌ؟ قال: «نعم»، قلت: فهل وراء ذلك الخير شرٌّ؟ قال: «نعم»، قلت: كيف؟ قال: «يكون بعدي أئمة، لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجالٌ قلوبهم قلوبُ الشياطين في جُثْمانِ إنسٍ»، قال: قلتُ: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمعُ وتطيعُ للأمير، وإن ضُرِبَ ظهرُكَ، وأُخِذَ مالُكَ، فاسمع وأطع» [٧].

---

(١) فيما احب وكره: أي فيما وافق غرضه أو خالفه.
(٢) رواه مسلم (١٨٣٩).
(٣) في منشطك: أي في حالة نشاطك.
(٤) ومكرهك: أي في حالة كراهتكَ.
(٥) رواه مسلم (١٨٣٦).
(٦) «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٢٢٥).
(٧) رواه مسلم (١٨٤٧).

فيـا أخي انظر إلى وصف النبي ﷺ لهـؤلاء الأئمة وذكـر أنهم لا يهـتدون بهـديه ولا يستنـون بسنته، وذلك غـاية الضـلال ومع ذلك فـقد أمـر النبي ﷺ بطاعتهم ـ في غيـر معصية الله ـ وحتى لو بلغ بهم الأمـر إلى ضربك فلا يحملنَّك ذلك على ترك طاعتهم[١].

قال الحـسن البصـري ـ رحمه الله ـ: «هؤلاء ـ يعني: الملـوك ـ وإن رَقَصَتْ بهم الهماليج[٢] ووطئ الناس أعقـابهم؛ فإنَّ ذُلَّ المعصيـة في قلوبهم، إلا أن الحقَّ ألزَمَنَا طاعَتَهُم، ومنعنا من الخروج عليهم، وأمرنا أن نستدفع بالتوبة والدعاء مضرَّتهم، فمن أراد به خيرًا لزم ذلك، وعمل به، ولم يخالفه»[٣].

٣ ـ *قلة الصبر على الحكام:*

من جفاف المشـاعر عدم الصبر على جور الحكام مع أن الصـبر على جور الحكام يجلب من المصـالح ويدرأ من المفاسد مـا يكون به صلاحُ العـباد والبـلاد، وقد حث النبي ﷺ على الصبـر على جور الأئمـة وظلمهم فعن ابن عـباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئًا يكرهُهُ؛ فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرًا، فمات فميتةٌ جاهليَّة».

وفي رواية لمسلم: «من كره منْ أميره شيئًا؛ فليصبر عليه؛ فإنه ليس أحَدٌ من الناس خَرَجَ من السلطان شبرًا، فمات عليه؛ إلاَّ مات ميتةً جاهليَّة»[٤].

قال الحافظ: «قال ابن أبي جَمْرَة: «المراد بالمفارقة السعي في حَلِّ عَقْد البيعةِ التي حصلت لـذلك الأمير، ولو بأدنـى شيء، فكنَّى عنها بمقـدار الشِّبـر؛ لأنَّ الأخذ في

---

(١) انظر «معاملة الحكام» لابن برجس (ص٨١).

(٢) **الهماليج**: نوع من الدَّواب وهو فارسي معرب.

(٣) كتاب «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (ص١٢١).

(٤) رواه البخاري (٧١٤٣)، ومسلم (١٨٤٩).

ذلك يؤول إلى سَفْكِ الدِّماءِ بغير حقٍّ»، والمراد بالميتةِ الجاهلية حالة الموتِ كموتِ أهل الجاهليـة على ضلالٍ وليس له إمام مطاعٌ؟ لأنهم كانوا لا يعـرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرًا، بل يموت عاصيًا»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّها ستكونُ بعدي أثرةٌ[٢] وأمـورٌ تنكرونهـا»[٣]، قـالوا: يا رسول الله! فـمـا تأمُرُنا؟ قـال: «تؤدُّون الحقَّ الذي عليكم وتسألون اللهَ الذي لكم»[٤].

قال النووي - رحـمه الله -: «فيـه الحث على السمع والطاعة، وإن كـان المتولي ظالمًا عَسوفًا؛ فيعطى حقه من الطاعة ولا يُخْرَجُ عليه، ولا يُخْلَعُ، بل يُتضرَّع إلى الله تعالى في كشف أذاه، ودفع شرِّه، وإصلاحه»[٥].

وعن عمرو بن يزيد قال: «سمعت الحسن أيام يزيد بن المُهَلَّبِ يقول - وأتاه رهطٌ - فأمرهم أن يلـزموا بيوتهم، ويغلقوا عليـهم أبوابهم، ثم قال: والله لو أنَّ الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا؛ مـا لبثوا أن يرفع الله - عزَّ وجلَّ - ذلك عنهم، إنهم يفزعون إلى السَّيْفِ، فيوكلون إليه، ووالله ما جاؤوا بيوم خيرٍ قط، ثم تلا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٧)»[٦].

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٧).
(٢) اثرة: هي الانفراد بالشيء عَمَّنْ له فيه حقٌّ.
(٣) امور تنكرونها: يعني من أمور الدِّين.
(٤) رواه البخاري (٧٠٥٢)، ومسلم (١٨٣٤).
(٥) «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٢٣٢).
(٦) «الشريعة» للآجري (ص٣٨).

وقال الحسن - أيضًا -: «اعلم - عافاك الله - أن جور الملوك نقمة من نقم الله - تعالى -، ونقم الله لا تلاقى بالسيوف، وإنما تُتَّقى وتُستَدْفع بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب.

إنَّ نقم الله متى لقيت بالسيف؛ كانت هي أقطع، ولقد حدثني مالك بن دينار أن الحجَّاج كان يقول: اعلموا أنكم كلما أحدثتم ذنبًا؛ أحدث الله في سلطانكم عقوبة.

ولقد حُـدِّثْتُ أنَّ قائلاً قال للحجاج: إنك تفعل بأمة رسول الله ﷺ كيت وكيت! فقال: أجل إنما أنا نقمة على أهل العراق لما أحدثوا في دينهم ما أحدثوا، وتركوا من شرائع نبيهم - عليه السلام - ما تركوا.

وقيل: سمع الحسن رجلاً يدعو على الحجاج، فقال: لا تفعل - رحمك الله -، إنَّكم من أنفسكم أُتيتُم، إنما نخاف إن عُزِلَ الحجَّاجُ أو مات أن تليكم القردة والخنازير.

ولقد بلغني أن رجلاً كتب إلى بعض الصالحين يشكو إليه جَوْر العُمَّالِ فكتب إليه: يا أخي! وصلني كتابك، تذكر ما أنتم فيه من جور العمَّال، وإنه ليس ينبغي لمن عَمِلَ بالمعصيةِ أن يُنكِرَ العقوبة، وما أظنُّ الذي أنتم فيه إلاَّ من شؤم الذنوب.. والسلام»[1].

٤ - *التهاون بأمر نصيحة الحكام:*

من جفاف المشاعر التهاون بأمر نصيحة الحكام ومن يأتمرون بأمرهم من المسئولين وكرام الناس يقضون هذا الحق، فالحكام بشر مثلنا وما يميزهم هو ثقل المسؤولية، ولهم علينا حقوق كثيرة كما لنا عليهم حقوق، ومن حقهم علينا النصيحة[2].

---

(١) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (ص١١٩-١٢٠).

(٢) الأصل في نصيحة الحكام أن تكون سرًا لا جهرًا، سرًا فيما بينك وبينهم كأن تكتب لهم أو تتصل بأهل العلم الذين يتصلون بهم، والدليل على ذلك ما أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢/٥٠٧) بسند صحيح صححه الألباني في «ظلال الجنَّة» (ص٥٠٧) من حديث عياض بن غنم ﷺ قال: قال =

والنصيحة للحكام خاصة مع أنها أمانة وحق من حقوقهم فلها فائدة عظيمة تعدو على الناصح ولو لم تقبل منه[١]، وهي أنَّها تنفي الغِلَّ والغِشَّ ومُفْسِدات القلبِ وسخائمَهُ.

فعن زيد بن ثابت ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث خِصال لا يَغِلُّ[٢] عليهنَّ قَلْبُ مُسْلمٍ؛ إخلاص العمل لله، والنصيحة لِولاة الأمور، ولزوم جماعتهم، فإنَّ الدعوة تُحيطُ مِنْ وَرَائهم»[٣].

= رسول الله ﷺ: «مَنْ أرادَ أنْ ينصح لذي سُلطانٍ فلا يُبْدِهِ علانيةً، وليأخُذْ بيده (أي ليخلوا به) فإنْ سَمِعَ مِنْهُ فذاكَ وإلا كانَ أدَّى الذي عَلَيْهِ»، وهذا الحديث أصلٌ عظيم في إخفاء نصيحة السلطان، وأن الناصح إذا قام بالنصح على هذا الوجه فقد برئ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، فلا تغتر بما يفعله جهال الناس من التشهير بالحكام من فوق المنابر والمحافل والمساجد والصحف والمجلات، فليس ذلك من النصيحة في شيء بل هو خلاف ما عليه السلف المقتدى بهم، فقد أخرج أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٨٢) بسند حسن حسنه الألباني في «ظلال الجنة» (ص٥٢٣) من حديث أسامة بن زيد أنه قيل له: «ألا تدخل على عثمان لتُكَلِّمَه؟ فقال: أترون أنِّي لا أكلِّمُهُ إلا أُسْمِعكُمْ؟ والله لقد كَلَّمْتُهُ فيما بيني وبينه ما دون أن أفتح أمرًا لا أُحِبُّ أن أكون أول مَنْ فتحه».

ـ قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: «مراد أسامة أنه لا يفتح باب المجاهرة بالنكير على الإمام لما يُخشى من عاقبة ذلك، بل يتلطف به، وينصحه سرًا فذلك أجدر بالقبول» انظر «فتح الباري» (١٣/ ٥٢).

ـ وقال الألباني ـ رحمه الله ـ في «مختصر مسلم» (٣٣٥) ما نصه: «يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ، لأنه في الإنكار جهارًا ما يُخشى عاقبتُهُ، كما اتُّفِقَ في الإنكار على عثمان جهارًا إذْ نشأ عنه قَتْلُهُ».

(١) قال الإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ في كتابه «الأخلاق والسير» (ص١١٨): «لا تَنْصَحْ على شرط القَبُولِ، ولا تَشْفع على شرط الإجابة، ولا تَهَبْ على شرط الإثابة، لكن على سبيل استعمال الفَضْلِ، وتأديَة ما عليك من النصيحة، والشفاعة، وبَذْلِ المعروف».

(٢) لا يَغِلُّ: من الغِلِّ وهو الحقد والشَّحْنَاءُ، أي لا يدخلُه حقدٌ، قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ في «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ٣٨١): «والمعنى أنَّ هذه الخِلال الثلاث تُستَصلَحُ بها القلوب، ممن تَمَسَّكَ بها طَهُرَ قلبُهُ من الخيانة والدَّغل والشَّرِّ».

و«عَلَيْهِنَّ»: «في موضع الحال، تقديره: لا يَغِلُّ كائنًا عليهنَّ قلبُ مؤمنٍ».

(٣) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٨٣)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (ص٥٠٤).

٥ ـ سب الحكام:

من جفاف المشاعر الوقيعة في أعـراض الحكام والاشتغال بسبِّهم، وهذا مع كونه من إيذاء المسلم، فكيف إذا كـان في حق من أمرنا الله بطاعـتهم، وأمـرنا رسول الله ﷺ بطاعتهم وحثنا على توقيرهم، فعن زياد بن كُسَيب العدوي قال: كنت مع أبي بكرة تحت منبر ابن عامر، وهو يخطب وعليه ثياب رقاق، فقال أبو بلال: انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفُسَّاق، فقال أبو بكرة: اسكت؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أهَانَ سُلْطَانَ الله في الأرض أهَانَهُ الله»[١].

وعن أنس بن مـالك رضي الله عنه قال: «كـان الأكابرُ من أصـحاب رسـول الله ﷺ يَنْهَوْننا عن سَبِّ الأُمراء»[٢].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «إياكم ولَعْنَ الولاةِ، فـإنَّ لَعْنَهُم الحالقةُ، وبُغْـضَهُمُ العاقِرَةُ»، قيل: يا أبا الدرداء فكيف نَصْنَعُ إذا رأينا منهم ما لا نُحبُّ؟ قال: «اصبروا، فإن الله إذا رأى ذلك منهم حَبَسَهُمْ عنكم بالموت»[٣].

وعن عون السهـمي قال: أتيت أبا أمامة فـقال: «لا تسبُّوا الحجَّـاج؛ فإنه عليك أمير، وليس عليَّ بأمير[٤]»[٥].

وعن أبي جمرة الضبعي قال: لما بلغني تحريقُ البيتِ خرجتُ إلى مكة، واختلفتُ إلى ابن عباس حتى عرفني واستأنس بي، فَسَبَبْتُ الحجَّاج عند ابن عباس، فقال: «لا تكنْ عونًا للشيطان».

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٣٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٩٦).
(٢) «التمهيد» (٢١/ ٢٨٧).
(٣) «السنة» لابن أبي عاصم (٢/ ٤٨٨).
(٤) قوله «ليس عليَّ بأمير»: أن أبا أمامة في الشام والحجَّاج والٍ في العراق.
(٥) «التاريخ الكبير» للبخاري (٧/ ١٨).

وعن هلال بن أبي حميد قال: سمعت عبد الله بن عُكَيْم يقول: لا أُعينُ على دَمِ خليفةٍ أبدًا بعد عثمان، فيقال له: يا أبا مَعْبَدٍ أو أَعَنْتَ على دَمِهِ؟ فيقول: إنِّي أعُدُّ ذِكْرَ مساويهِ عونًا على دَمِهِ».

وعن الزبرقان قال: كنت عند أبي وائل[1]، فجعلتُ أَسُبُّ الحجَّاج، وأذكرُ مساويه، قال: لا تسبه، وما يدريك لَعَلَّهُ قال: «اللهم اغفر لي، فغفر له»[2].

٦ ـ *التهاون بأمر الدعاء للحكام:*

من جفاف المشاعر عدم تخصيص ولاة الأمور بالدعاء، ولا يقف الأمر عند ذلك بل إن من الناس من ينتقص الداعي لهم، ويمدح من يدعو عليهم، وهذا من الخلل الفادح والتقصير الكبير؛ فإن الدعاء للحكام دليل على تمسك الداعي لهم بالسنة زد على ذلك أن السلطان إذا دعيت له بالصلاح فإنه يصلح بصلاحه خلق عظيم، فإذا أردت الخير لك ولغيرك فادع للسطان فعلى ذا مضى السلف؛ فَسِر على ما ساروا عليه من البر واصنع كما صنعوا.

قال الإمام البربهاري ـ رحمه الله ـ: «إذا رأيتَ الرجل يدعو على السلطان؛ فاعلم أنه صاحب هوى، وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح؛ فاعلم أنه صاحب سنَّة إن شاء الله تعالى»[3].

وكان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ يقول: «لو كان لي دعوة ما جعلتها إلا في السلطان، فأُمِرْنَا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نُؤْمَرْ أن ندعو عليهم، وإن جاروا وظلموا؛ لأن جورهم وظلمهم على أنفسهم وعلى المسلمين وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين»[4].

---

(١) هو شقيق بن سلمة.
(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٢/ ٤٦٤).
(٣) «السنَّة» للإمام البربهاري (١٠٧، ١٠٨).
(٤) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٦).

جفاف المشاعر مع العلماء

من الناس من جفت مشاعرهم فلا يقدرون العلماء كما ينبغي أن يكون التقدير، فإن للعلماء منزلة عظيمة من الدين ليست لغيرهم، ولهم حرمة مصونة، وقد تواردت أدلة الكتاب والسنة على علو شأنهم ورفعة مقامهم، فمنها:

فضل العلماء:

١ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر بطاعتهم:

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٥٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «(أولو الأمر) أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة، وأهل العلم، والكلام؛ فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس»[١].

٢ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفى التسوية بين العلماء وغيرهم:

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩).

٣ ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ رفعهم على من سواهم من المؤمنين:

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١).

---

(١) «الفتاوى» (٢٨/ ١٧٠).

قال الطبري - رحمه الله -: «ويرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين الذين لم يؤتوا العلم، بفضل علمهم درجاتٍ إذا عملوا بما أُمروا به»[(١)].

٤ - أن الله - سبحانه وتعالى - أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عمَّا أشكل:

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٧).

قال ابن سعدي - رحمه الله -: «عموم هذه الآية، فيها مدح لأهل العلم وأن أعلى أنواعه: العلم بكتاب الله المنزَّل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديلٌ لأهل العلم وتزكيةٌ لهم حيث أمر بسؤالهم؛ وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة»[(٢)].

٥ - أن الله - سبحانه وتعالى - عَظَّم قدرهم فأشهدهم دون غيرهم على أعظم مشهود:

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨).

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية: الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم»[(٣)].

وقال الإمام القرطبي - رحمه الله -: «في هذه الآية دليلٌ على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه، واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء»[(٤)].

وقال العلامة ابن سعدي - رحمه الله -: «وفي هذه الآية: فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته،

---

(١) «جامع البيان» (٢٨/ ١٩).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (ص٥١٩).

(٣) «التفسير القيم» (ص١٩٩).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٤١).

وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة، وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبعٌ لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره»[١].

٦ - أنهم أهل الفهم عن الله - سبحانه وتعالى -:

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: «وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه»[٢].

وقال العلامة ابن سعدي - رحمه الله -: «﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ أي: بفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب. ﴿إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم، وهذا مدحٌ للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدحٌ لمن يعقلها، وأنه عنوانٌ على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين»[٣].

٧ - أنهم أهل الخشية:

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وهذا حصر لخشيته في أولي العلم، وقال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (١٢٤).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤١٤).
(٣) «تفسير ابن سعدي» (٦٣١).

عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة: ٨)، وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء فدل على أن الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين»[١].

وقال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «فكل من كان بالله أعلم كان أكثر له خشية، وأوجبت له خشية الله الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم؛ فإنه داعٍ إلى خشية الله»[٢].

٨ ـ أن أهل العلم أبعد الناس بالشر ومداخل الشر:

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (النحل: ٢٧).

قال العلامة ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أي: العلماء الربانيون، ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ وَالسُّوءَ ﴾ أي: سوء العذاب، ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾، وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارًا عند الله وعند خلقه»[٣].

٩ ـ أن أهل العلم يعرفون الفتنة عند إقبالها:

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ (القصص: ٨٠).

فأهل العلم كانوا بصراء بالشر وعلماء بالخير، فلما رأوا الناس يتمنون مثل ما أوتي قارون حذروهم من الشر وبينوا لهم الخير؛ لأنهم يعرفون الفتنة عند إقبالها وغيرهم لا يعرف الفتنة إلا عند إدبارها، فلما أدبرت الفتنة بقارون وحلت عقوبة الله عرف الناس أن العلماء على الحق، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١).

(٢)، (٣) «تفسير ابن سعدي» (٦٨٩).

مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (القصص: ٨٢).

١٠ ـ *أن العلماء ورثة الأنبياء:*

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»[١].

قال الإمام ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «يعني: أنهم وَرِثُوا ما جاء به الأنبياء من العلم، فهم خَلَفُوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته، والنهي عن معاصي الله والذود عن دين الله»[٢].

١١ ـ *أن العلماء هم المبلِّغون عن الأنبياء:*

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَسْمَعُونَ، وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، ويُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ»[٣].

١٢ ـ *أنهم المستحقون لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم:*

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نضَّرَ الله امْرَأ سَمِعَ مقالتي فبلَّغها، فَرُبَّ حامل فقهٍ غيرِ فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه»[٤].

---

(١) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٩٦)، والدارمي (٣٤٩)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٨٣٣)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٢١٢).

(٢) «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» (ص٤٦).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٣٦٥٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٨٤).

(٤) صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٣٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٠٣).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه؛ أن النبي ﷺ قال: «نَضَّرَ الله امْرأ سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فبلَّغَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ احفظ من سَامِعٍ»[١].

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «في هذا الحديث دعاء من الرسول ﷺ لمن يسمع كلامه ووعاه بالنضر وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه»[٢].

١٣ ـ *أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد بهم الخير:*

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين»[٣].

قال الإمام الآجري ـ رحمه الله ـ: «فلما أراد الله ـ تعالى ـ بهم خيرًا فقههم في الدين، وعلمهم الكتاب والحكمة، وصاروا سراجًا للعباد ومنارًا للبلاد»[٤].

١٤ ـ *أن نجاة الناس منوطة بوجود العلماء:*

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتَّى إذا لم يُبْق عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»[٥].

ضلوا بإفتاء الناس بالباطل، وقولهم على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير[٦].

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٣٢)، وصححه الألباني في «المشكاة» (٢٣٠).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٤).
(٣) رواه البخاري (٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧).
(٤) «أخلاق العلماء» (ص٩٤).
(٥) رواه البخاري (٧٣٠٧)، ومسلم (٢٦٧٣).
(٦) انظر «قواعد في التعامل مع العلماء» للشيخ عبد الرحمن اللويحق (ص٤٣) وما بعدها.

وبعد أن عرجتُ على فضل العلماء ومنزلتهم من الدين تذكيرًا للعاقل، وتنبيهًا للغافل، أذكر جملة من جفاف المشاعر نحوهم؛ فمن جفاف المشاعر نحو العلماء ما يأتي:

صور من جفاف المشاعر مع العلماء:

١ ـ قلة احترامهم وتوقيرهم:

من جفاف المشاعر نحو العلماء قلة احترامهم وتوقيرهم، وكرام الناس يقضون هذا الحق ويعرفون للعلماء حقهم ومنازلهم.

وقد حث النبي ﷺ على احترام أهل العلم وإجلالهم وتقديرهم، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المُسْلم[١]، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المُقْسط»**[٢].

---

(١) **ذي الشيبة:** هو الكبير في السن، وقد انقرضت لغة المشاعر التي تضفي عليهم الدفء في قَرِّ الشتاء ونحن نتفيأ في ظلال دين عظيم يراعي كل شيء بما في ذلك هذا الجانب، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: **﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾** (الأنعام: ٣٨).

ـ وقد جعل النبي ﷺ إكرام ذي الشيبة المسلم من إجلال الله والإجلال لا يقتصر على ذي الشيبة المسلم بل من كان يكبرك بسنة له حق ويتأكد ذلك إذا كان يكبرك بأعوام، ففي «صحيح مسلم» (٣٠٠٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أراني في المنام أتسوك فجذبني رجلان أحدهما أكبر من الآخر، فناولتُ السواك الأصغر منهما، فقيل لي: كبر، فدفعته إلى الأكبر»**.

ـ وقال رسول الله ﷺ: **«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»**، وهو حسن وسيأتي تخريجه. والكبير في قومه يُقابَلُ بالتقدير لما في «سنن ابن ماجه» (٣٧١٢) بسندٍ حسن حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أتاكم كريم قوم فأكْرِمُوه»**، وحتى لو كان الكبير في قومه لا يستحق التقدير، فهو يستحق التقدير الشكلي لمصلحة التألف، كما كان من مخاطبة رسول الله ﷺ لهِرَقْلَ بـ «عظيم الروم»، وهو في «صحيح البخاري» (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

ـ قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في «الفتح» (١/ ٣٨): «لم يخلسه من إكرام لمصلحة التألف».

(٢) **حسن:** أخرجه أبو داود (٤٨٤٣)، وقال الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٩٥): حسن.

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا[1] مَنْ لم يُجِلَّ كَبِيْرَنا، وَيَرْحَمْ صَغيرَنا، وَيعْرِفْ لِعَالِمِنا حَقَّهُ»[2].

وقد كان السلف يحترمون العلماء احترامًا كبيرًا؛ فهذا ابن عباس ﷺ يأخذ بركاب زيد بن ثابت ﷺ ويقول: «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا»[3].

وقال ابن عباس ﷺ: «أقبلت على المسألة وتتبع أصحاب رسول الله ﷺ فإن كنتُ لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله ﷺ فأجده قائلاً فأتوسد ردائي على بابه تسفى الريح على وجهي حتى يخرج فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما لك؟ فأقول: بلغني حديثٌ عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ فأحببتُ أن أسمعه منك، قال: فيقول: هلا بعثت إليَّ حتَّى آتيك، فأقول: أنا أحق أن آتيك»[4].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لخلف الأحمر: «لا أقعد إلا بين يديك؛ أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه»[5].

ولما جاء الإمام مسلم بن الحجاج إلى الإمام البخاري ـ رحمهما الله ـ وقبَّل بين عينيه، وقال: «دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدِّثين، وطبيب الحديث في علله..»[6].

---

(١) ليس منا: ليس من سنتنا.

(٢) حسن: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/٣٢٣)، والحاكم (١/١٢٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٤٣).

(٣) اثر صحيح: رواه الحاكم (٣/٤٢٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/٨٦).

(٥) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٨).

(٦) «البداية والنهاية» (١١/٣٤٠).

فانظر إلى توقيــر السلف لأهل العلم فهم قد اتفقوا عــلى توقير صنف من الناس وهم العلماء والأمراء وذو الشيبة المسلم والوالد.

قال الإمــام أبو محمد ابــن حزم ـ رحمه الله ـ: «اتفــقوا على توقيــر أهل القرآن والإسلام والنبي ﷺ وكذلك الخليفة والفاضل والعالم»[١].

٢ ـ عدم استشعار مهابتهم:

من جفاف المشاعر عــدم استشعار مهابة العلماء الذين هم أحــق بها وأهلها حاشا الوالدين وولاة أمور المسلمين وحاشا لذي الشيبة المسلم[٢].

فعن أبي هريرة ﷺ قال: صلَّى بنا النبي ﷺ الظهر ركعتين ثم سلم، ثم قام إلى خشبة في مقدَّمِ المسجد ووضع يدهُ عليها، وفي القوم يومئذٍ أبو بكر وعُمَرُ، فهابا أن يكلماهُ، وخــرج سرعان الناس فــقالوا: قَــصُرتْ الصلاة؟، وفي القــوم رجلٌ كان النبي ﷺ يدعُوهُ ذا اليديــن، فقال: يا نبي الله أنسيت أم قصُــرَت؟ فقال: **«لم انسَ ولم تقصر»**، قالوا: بلى نسيت يا رسول الله، قال: **«صدق ذو اليدين»**[٣].

وعن طلحة بن عــبد الله ﷺ: «أن أصحاب رسول الله ﷺ قــالوا لأعرابي جاهل سله: عــمَّن قضى نحبــه من هو ـ وكانوا لا يجتــرؤن على مسألتــه يوقرونه ويهابونه»[٤].

---

(١) «الآداب الشرعية» (١/ ٣٠٤).

(٢) قال طاووس: «من الــسنة أن يوقر أربعــة: العالم، وذو الشيــبة، والسلطان، والوالــد»، انظر «شرح السنة» (١٣/ ٤٣).

(٣) رواه البخاري (٦٠٥١)، ومسلم (٥٧٣).

(٤) حسن صحيح: أخرجه الترمذي (٣٤٣٣)، وقال الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٦٠): حسن صحيح.

وعن الأعمش قال: حدثنا شقيق قال: سمعت حذيفة قال: كُنَّا جُلوسًا عند عمر ﵁، فقال: أيُّكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قُلتُ: أنا، كما قاله، قال: إنك عليه، أو عليها - لجريءٌ، قلت: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تكفِّرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي، قال: ليس هذا أُريدُ، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، قال: ليس عليك منها بأسٌ يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها بابًا مغلقًا، قال: أيكسر أم يُفتَح؟ قال: يُكْسَرُ، قال: إذًا لا يُغْلَقَنَّ أبدًا، قلنا: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم، كما أن دون الغدِ الليلة، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط، فهِبنا أن نسأل حذيفة، فأمرنا مسروقًا فسأله، فقال: البابُ عُمَرُ»[1].

وعن ابن عباس ﵄ قال: «مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن حديث ما منعني إلا هيبته[2]»[3].

٣ - التقدم بحضرتهم في الحديث وغيره:

من جفاف المشاعر التقدم بحضرة العلماء والأكابر من الناس في الحديث وغيره، والأدب الحسن يقتضي عدم التقدم بحضرتهم في رأي أو قول أو فعل إلا إذا أذنوا له.

فعن رافع بن خديج وسهل بن أبي خيثمة أنهما قالا: «إن عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود أتيا خيبر فتفرقا في النخل، فقُتل عبد الله بن سهل، فجاء عبد الرحمن بن سهل وحويصة ومحيصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ فتكلموا في أمر صاحبهم، فبدأ عبد الرحمن وكان أصغر القوم فقال له النبي ﷺ: «**كبِّر الكُبْرَ**»، قال يحيى (ابن سعيد) يعني ليلي الكلام الأكبر».

(١) رواه البخاري (٥٢٥).

(٢) إذا كنت تستشعر مهابة العلماء وتمنعك هيبتك لهم عن السؤال فاكتب لهم أو اتصل بمن يتصلون بهم.

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١١٢).

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «المراد الأكبر في السن إذا وقع التساوي في الفضل، وإلا فليقدم الفاضل في الفقه والعلم إذا عارضه السن»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أخبروني بشجرةٍ مثلها مثل المسلم تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولا تَحُتُّ ورقها»**، فوقع في نفسي أنها النخلة، فكرهتُ أن أتكلم وثَمَّ أبو بكر وعمر، فلما لم يتكلما، قال النبي ﷺ: **«هي النخلة»**، فلما خرجتُ مع أبي قلت: يا أبتاه وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تقولها، لو كنت قلتها كان أحبَّ إليَّ من كذا وكذا، قال: ما منعني إلا أني لم أرك ولا أبا بكرٍ تكلمتما فكرهتُ».

وفي رواية مسلم: «فجعلتُ أريد أن أقولها فإذا أنا أسنان القوم فأهاب أن أتكلم».

وفي رواية أحمد والدارمي: «فنظرت فإذا أنا أصغر القوم فسكتُّ»[٢].

فانظر إلى أدب الصحابة رضي الله عنهم لا يتقدم أحدهم بين يدي أهل الفضل والعلم والدين وحتى لو كان عنده فضل علم ما ليس عند غيره.

٤ ـ قلة الأخذ عن العلماء والسعي إليهم:

من جفاف المشاعر قلة الأخذ عن العلماء والسعي إليهم أو على الأقل سؤالهم عن أمور دينهم ودنياهم، وإن دلَّ ذلك على جفاف المشاعر فإنه يدل ـ أيضًا ـ على زهد الناس في ميراث النبوة؛ فالعلماء ورثة الأنبياء، فمن أراد أن ينال شيئًا من هذا الميراث النبوي فعليه بمجالسة العلماء والأخذ عنهم، فإن الآخذ عن العلماء السالك في طريق العلم يسهل الله له طريقًا إلى الجنَّة فليس هناك طريق أقصر إلى الجنة من طريق من سلك طريق العلم.

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ١٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٤)، واللفظ له، ومسلم (٢٨١١).

فعن كثير بن قيس قال: كنتُ جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فجاءه رجل فقال: يا أبا الدرداء، إني جئتك من مدينة الرسول ﷺ، لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ، ما جئت لحاجة، قال: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طريقًا يَطْلُبُ فيه علمًا، سلكَ الله بِهِ طريقًا من طرق الجنّة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنَّ العالم ليستغفرُ لَهُ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض، والحيتانُ في جوف الماء، وإنَّ فضلَ العالم على العابدِ كفضلِ القمر ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لَمْ يورثوا دينارًا ولا درهمًا، ورثوا العلم فمن أخذهُ أخذ بحظٍّ وافرٍ»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ رجل يسلكُ طريقًا يطلبُ فيه علمًا، إلا سهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طريق الجنة، ومَنْ أبطأ به عملُهُ لم يسرعْ به نسبهُ»[2].

٥ ـ انتقاد العلماء بأسلوب ينال من هيبتهم:

من جفاف المشاعر انتقاد العلماء بأسلوب ينال من هيبتهم لدى العامة، وهذا ليس من النصيحة في شيءٍ وإنما يفعل ذلك الذين يفسدون ويحسبون أنهم يصلحون والعلماء غير معصومين ألبتة، بل هم عرضة للخطأ والسهو والغفلة والتقصير.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ بني آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوابون»[3].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في «سننه» (٣٦٤١)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٢٣).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٢٥).

(٣) حسن: أخرجه أحمد (٣/١٩٨)، والترمذي (٢٦١٦)، وحسنه الألباني في «تخريج المشكاة» (٢٣٤١).

فإذا كانت زلة العالم لا تؤثر في الناس فالواجب سترها[١] وإقالة هذا العالم عثرته فإن العلماء من ذوي الهيئات الذين أمر النبي ﷺ بإقالة عثراتهم.

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود**»[٢].

وأيضًا فالرسول ﷺ نفى عن العلماء المجتهدين الإثم والجناح؛ فالعالم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجرٌ واحدٌ فهو على كل حال مأجورٌ، والإثم عنه مرفوعٌ.

فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»[٣]، ومع ذلك لا يمنع من الرد على الخطأ إن كان يؤثر في الاتباع تأثيرًا بينًا لكن بشروط، منها:

١ ـ أن لا يكونِ الخطأ في المسائل الاجتهادية التي يسع فيها الخلاف بين المسلمين.

٢ ـ أن لا يبني نقده على ظن، أو تهمة بل على أمر جلي أو فرينة صريحة.

---

(١) يجب الستر وبذل النصيحة خاصة في السر، لأن من حق العالم أن ينصح إذا زل أو أخطأ، ففي صحيح مسلم (٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**»، قُلنا: لِمَنْ؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

ـ والنصيحة في السر سنة سنها السلف لمن بعدهم، قال ابن المبارك: «كان الرجل إذا رأى من أخيه ما يكره، أمره في ستر، ونهاه في سترٍ، فيؤجر في ستره، ويؤجر في نهيه، وأما اليوم فإذا رأى أحد من أحدٍ ما يكره استغضب أخاه، وهتك ستره». وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير». وقال هارون الرشيد ـ رحمه الله ـ للأصمعي: «وقِّرنا في الملإ وعلِّمنا في الخلاء».

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٣٧٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٨٥)، و«الصحيحة» (٦٣٨).

(٣) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

٣ ـ أن يتحرى العدل في كلامه.

٤ ـ أن يلتزم الصدق.

٥ ـ أن يلتزم الرفق[١].

٦ ـ أن يكون قصده النصيحة لا التأنيب[٢].

---

(١) الرفق هو الأصل ومن دواعي القبول وحصول المراد، وأمر به ففي «صحيح مسلم» (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة، إن الله رفيق يحبُّ الرِّفقَ، ويُعْطِي على الرِّفق ما لا يُعْطِي على العنفِ، وما لا يُعْطِي على ما سِوَاهُ»**.

ـ وفي «صحيح مسلم» (٢٥٩٢) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ حُرِمَ الخَيْرَ»**.

ـ وقال العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ كما في «مجلة الدعوة» العدد رقم (١٣٨٦): «فالواجب على الدعاة إلى الله ـ سبحانه ـ أن يتثبتوا في الأمر، وأن يتبصروا أولاً، حتَّى يتيقنوا أن هذا الأمر معروف أو منكر، وعلى القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالدليل الشرعي حتى يكون إنكارهم على بصيرة، لقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** (يوسف:١٠٨)، مع نصيحتي لهم ـ أيضًا ـ بأن يكون الإنكار بالرفق، والكلام الطيب، والأسلوب الحسن، حتى يقبل منهم وحتَّى يصلحوا أكثر مما يفسدون».

(٢) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الفرق بين النصيحة والتأنيب كما في كتابه «الروح» (ص٢٥٧-٢٥٨) ما نصه: «والفرق بين النصيحة والتأنيب أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له، والشفقة عليه، والغيرة له وعليه، فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه، والإحسان إلى خلقه، فيتلطف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق للمريض المشبع مرضًا وهو يحتمل سوء خلقه، وشراسته، ونفرته، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن فهذا شأن الناصح.

ـ وأما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والإهانة، وذم من أنَّبه، وشتمه في صورة النصح، فهو يقول له: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحقًا للذم والإهانة. في صورة ناصح مشفق، وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل هذا أو شَرٍّ منه لم يعرض له، ولم يقل له شيئًا، ويطلب له وجوه المعاذير، فإن غلب قال: وإني ضمنت له العصمة، والإنسان عرضة للخطأ، ومحاسنه أكثر من مساويه، والله غفور رحيم، ونحو ذلك فيا عجبًا!، كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه، وكيف كان حظ ذلك منك التأنيب في صورة النصح، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة، وطلب وجوه المعاذير، ومن الفروق بين الناصح والمؤنب أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل، وقال قد وقع أجري على الله، قبلت أو لم تقبل، ويدعو لك بظهر الغيب، ولا يذكر عيوبك ولا يبينها في الناس..».

٧ ـ أن يكتب الرد سرًا ثم يرسله بنفسه إلى المنصوح ويجلس معه إن أمكن ذلك يناقشه إن كان قريبًا ويرسل إليه بالرد إن كان بعيدًا.

٨ ـ أن يجتنب من الكلام ما قد يثير العناد والتمادي في الخطأ وأن يركز في رده على القول لا القائل، ولا يكون حاله كحال شعراء النقائض.

٩ ـ أن يعرض الرد على أهل العلم قبل نشره فإن أشاروا عليه بنشره وإلا طواه، فرأي الجماعة خير من رأي الواحد.

٦ ـ انتهاك حرمة العلماء:

من جفاف المشاعر انتهاك حرمة العلماء بالتنقص من أقدارهم وما ذاك بأخلاق الكرام، فكرام الناس لا يسمحون لأنفسهم أو لغيرهم بالتنقص من العلماء بل ويطهرون مجالسهم من الوقيعة فيهم لأن العلماء من المسلمين الذين حرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ دماءهم وأموالهم وأعراضهم على لسان نبيه ﷺ.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم**[1] **عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»**[2].

ومن المعلوم أنه لا يستوي ما حرمه الله من جهة واحدة، وما حرمه من جهات متعددة، فالحرام يعظم بتعدد جهات الانتهاك، ويعظم ـ تبعًا ـ لذلك الإثم، ويتضاعف العقاب.

---

(١) الأعراض: جمع عرض وهو موضع المدح والذم من الإنسان، سواء كان في نفسه أو في سلفه، أو من يلزمه أمره، وقيل هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحَسَبه ويحامي عنه أن ينتقص أو يثلب»، انظر «النهاية» (٣/ ٢٠٨)، و«فتح الباري» (١٠/ ٤٦٤).

(٢) رواه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩).

فظلم النفس بالمعاصي حرام في كل زمان ومكان لكنه أشد إذا وقع في الأشهر الحرم، ولذلك قال ربنا ـ سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (التوبة: ٣٦).

ولهذا نظائر؛ فعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يزني الرَّجلُ بعشرِ نسوةٍ أيْسَرُ عليه من أن يزني بامرأة جاره، ولأن يَسْرِق الرَّجلُ مِنْ عشرِ أبياتٍ أيْسَرُ عليه من أن يسرقَ من جاره»[1].

وإن المسيء إلى العلماء، والطاعن عليهم بغيًا وعدوًا قد ركب متن الشطط ووقع في أقبح الغلط؛ لأن حرمة العلماء مضاعفة، وحقوقهم متعددة، فلهم كل ما ثبت من حقوق المسلم على أخيه المسلم، ولهم حقوق المسنين والأكابر، ولهم حقوق حملة القرآن الكريم، ولهم حقوق العلماء العاملين، والأولياء الصالحين، فمن ثم نصَّ الشافعية على أن الغيبة إذا كانت في أهل العلم وحملة القرآن فهي كبيرة، وإلا فصغيرة»[2].

فيا أخي إن التنقص من العلماء إيذاءٌ لهم، والإيذاء للعلماء إيذاءٌ لأولياء الله الصالحين، فإن العلماء العاملين يدخلون دخولاً أوليًا في وصف الأولياء[3].

ومن عادى أولياء الله فقد حارب الجبار ـ جلَّ جلاله ـ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»[4].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٥).

(٢) «مغني المحتاج» (٤/٤٢٧)، وانظر «حرمة أهل العلم» للمقدَّم (ص٩، ١٠).

(٣) انظر «قواعد في التعامل مع العلماء» (١٠٤).

(٤) رواه البخاري (٧/ ١٩٠).

وقد جرت سنة الله في الانتقام من منتقص العلماء والجزاء من جنس العمل، قال الإمام ابن عساكر الدمشقي - رحمه الله -: «واعلم يا أخي - وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته - أن لحوم العلماء - رحمهم الله - مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براءٌ أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاف على من اختاره الله منهم لنشر العلم خلق ذميم»[1].

وقال ابن المبارك - رحمه الله -: «حق على العاقل أن لا يستخف بثلاثة: العلماء، والسلاطين، والإخوان، فإنه من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالسلطان ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته»[2].

فيا أخي إنك لن تستطيع أن تعبر عن فضل نفسك بمثل اعترافك بفضل ذوي الفضل؛ فإنه لا يعرف الفضل لأهله إلا ذوو الفضل، وليس بفاضل من لا يذب عن أعراض الفضلاء.

وما عبَّر الإنسان عن فضل نفسه ۞ بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضلِ

وليس من الإنصاف أن يدفع الفتى ۞ يدَ النقص عنه بانتقاص الأفاضلِ

٧ - قلة الأدب في الخطاب مع العلماء:

من جفاف المشاعر قلة الأدب في الخطاب مع العلماء كأن يناديه من بُعْد من غير ضرورة، أو يناديه باسمه مجردًا.

قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (النور: ٦٣).

---

(١) «تبين كذب المفتري» (٢٨).

(٢) «السير» (١٧/ ٢٥١).

قال الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ في ذكر أدب الطالب مع شيخه أن (ينبله في الخطاب، ويبجله في الألفاظ، ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهل السوق وأفناء[١] العوام؛ فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، وهذا أصل في أن يُميز ذو المنزلة بمنزلته، ويفرق بينه وبين من لم يلحق بطبقته»[٢].

وقال بكر أبو زيد: «وكما لا يليق أن تقول لوالدك ذي الأبوة الطينية: «يا فلان»، أو «يا والدي فلان»، فلا يجمل بك مع شيخك»[٣].

ومن طريف ما يذكر أن أحدهم جاء إلى سفيان بن عيينةَ من خلفه فجذبه، وقال: «يا سفيان، حدِّثني!، فالتفت سفيان إليه، وقال: يا بُنيَّ! من جهل أقدار الرجال فهو بنفسه أجهل»[٤].

وقال أبو محمد التميمي ـ رحمه الله ـ: «يقبح بكم أن تستفيدوا منا، ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا»[٥].

---

(١) الأفناء: الأخلاط من الناس، مفردها: فِنو.

(٢) «الفقيه والمتفقِّه» (٢/ ١٧٩).

(٣) «حلية طالب العلم» (ص٢٥).

(٤) «آداب العشرة» للغزي (ص٥٥).

(٥) «رسالة المسترشدين» (ص٤).

جفاف المشاعر مع الإخوان

الإخوة في الله تقوم على المشاعر الدافئة والعاطفة الصادقة والألفة والود والتراحم فهي أشبه ببذرة زرعت في أرض خصبة تُسقى بماء المشاعر الفياضة، ولا يمكن لمن جفت مشاعره أن يستبقي على إخوانه وأنَّى لهم الحياة في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا شجر!

نعمة الأخوة:

الأخوة في الله من أجلِّ النعم وأعظمها بعد نعمة الهدى والإيمان، قال الله - سبحانه وتعالى -: **﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾** (آل عمران: ١٠٣)، وقال الله - سبحانه وتعالى -: **﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾** (الأنفال: ٦٣).

فما أروعها من نعمةٍ، فيها من النور العظيم جلالٌ وبهاءٌ وكمالٌ، وأنت حقيقٌ أن تدخر إخوانك وتستبقي على مودتهم فإن ذلك سبب لتذوق حلاوة الإيمان؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سَرَّه أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يُحبُّهُ إلا الله - عزَّ وجلَّ -»**[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يَعُودَ في الكُفرِ كما يكره أن يقذف في النار»**[2].

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢/٢٩٨)، والطيالسي (٢٤٩٥)، والحاكم (١/٤)، (٤/١٦٨) وصححه، ووافقه الذهبي، ورواه البغوي في «شرح السنة» (١٣/٥٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٩٠): رجاله ثقاتٌ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٦٤).

(٢) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

ولتعلم - أخي في الله - أن جفاف مشاعرك مع إخوانك يقرر لك في قلوبهم من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل، ومما يسفر عن جفاف المشاعر مع الإخوان من العثار ما يأتي:

صور من جفاف المشاعر مع الإخوان:

١ - قلة الرغبة في انتقاء الإخوان:

لا تقل الرغبة في انتقاء الإخوان إلا من جفاف المشاعر؛ فمن جفت مشاعره فإنه لا يبالي من يصاحب أكان صالحًا يزداد به صلاحًا، أم صديق سوء لا يزداد به إلا وهنًا إلى وهنه، وقد حثَّنا نبيُّنا ﷺ على انتقاء الإخوان وأرشد إلى ذلك؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الرَّجُل على دين خليله فلينظر أحدُكم مَنْ يُخَالِلْ»[1].

فـفي هذا الحـديث حثَّ النبي ﷺ على انتقـاءِ الإخـوان واختيـارهم؛ لأن للإخوان من التأثيـر ما ليس لغيرهم، ويؤكِّد ذلك حديث أبي مـوسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما مَثَلُ الجليس الصالح، والجليس السوء كحامل المِسْك، ونافخ الكِيْر[2]؛ فحامل المِسْك إمَّا أن يُحْذِيكَ، وإمَّا أن تبتاع منه[3]، وإمَّا أن تجدَ منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يَحْرِقَ ثيابك، وإمَّا أن تَجِدَ مِنْهُ ريحًا خبيثةً»[4].

وهذا التمثـيل بالجليس الصالح والجليس السوء من تمام حـرصه ﷺ على أمتنا بتوجيههـا إلى الخير وأبوابه وتحذيرهم من الشر ومقدماته؛ فـإن للجليس من التأثير ما ليس لغيره، كما قيل:

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٧٢١٢)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمـذي (٢٣٨٧)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٢٧).

(٢) الكير: بالكسر - زقٌّ يَنْفُخُ فيه الحدَّادُ.

(٣) يُحذيك: يعطيك.

(٤) تبتاع منه: تطلب البَيْعَ منه.

(٥) رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

صَحِبْتُكُمْ فَازْدَدْتُ نوراً وبَهْجَةً ☆☆ وَمَنْ يَصْحَبِ الطيبَ المُعَطَّرَ يَعْتَقِ[(١)]

ويحسن بنا ذكر من تؤثر صحبته.

صفة من تؤثر صحبته:

١ - أن يكون صالحًا نشأ في الصالحين:

فعن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إنَّ آل فلانٍ ليسوا بأوليائي، إنَّما وليِّيَ الله، وصالح المؤمنين».

قال ابن حبان - رحمه الله -: «العاقل لا يؤاخي إلا ذا فضلٍ في الرأي، والدين والعلم، والأخلاق الحسنة، ذا عقل نشأ مع الصالحين؛ لأن صحبة بليدٍ نشأ مع العقلاء خيرٌ من صحبة لبيب نشأ مع الجهال»[(٢)].

عاشِرْ أخَا الدِّين كي تَحْظى بصُحْبَتِهِ
فالطَّبْعُ مِنْ كُلِّ مَصْحُوبِ
كالرِّيح آخِذَةٌ مِمَّا تَمُرُّ به
نَتْنًا مِنَ النَّتْنِ، أو طيبًا من الطِّيبِ

٢ - أن يكون حسن الخلق:

وذلك لأن حسن الخلق هو الأساس بعد الإيمان بالله، وقد ذكر الإمام الماوردي - رحمه الله - أن من الخصال المعتبرة في إخاء الإخوان: «أن يكون محمود الأخلاق مرضيَّ الفعال، مؤثرًا للخيرِ آمرًا به، كارهًا للشرِّ ناهيًا عنه»[(٣)].

وقال الفضيل بن عياض - رحمه الله -: «إذا خالطت فخالط حَسَنَ الخُلق؛ فإنه

---

(١) يُقال: عَبِقَ به الطِّيبُ عبقًا: أي لزق ولَصِقَ به، وبابه فرح.

(٢) «روضة العقلاء» (ص١٤٧).

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص١٦٧).

لا يدعو إلا إلى خيرٍ، وصاحبُـهُ منه في راحة، ولا تخالط سيئَ الخُلق؛ فإنه لا يدعو إلا إلى شر، وصاحبُه منه في عناء؛ ولأن يصحبني فاجرٌ حَسن الخُلق، أحبُّ إليَّ من أن يصحبني قـارئ سيءُ الخلق، إن الفاسق إذا كان حسن الخلق عـاش بعقله، وخفَّ على الناس وأحبُّوه، وإن العابد إذا كان سيئ الخُلق، ثقل على الناس ومقَتوه»[١].

وقال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «من طلب الفضائل لم يُساير إلا أهله، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكـرم صديق من أهـل المواساة والبـرِّ والصدق وحُـسن العِشـرة والصبر، والوفاء، والأمانة، والحِلْم، وصفاء الضمير، وصحَّة المودة»[٢].

وإيَّاك أن تؤاخي أحدًا إلا بعـد تثبت وطول مـعاشرة ومن ذلك السَّـفَرُ معـه فإنَّ السفر يُسْفِرُ عن حقائق النفوس ويريك أين أخلاقه من أخلاق النبي ﷺ فإن العرب تقول: «السَّفَرُ ميزانُ القومِ»[٣]، لأنه يُسْفِرُ عن كثير من أخلاقهم وطبائعهم.

ابْـل الـرِّجَـــــالَ[٤] إذا أردتَ إخـــــاءَهُـم
وَتَـوَسَّـــــمَنْ[٥] أمُـــــورَهُمْ وَتَـفَــــقَّــــدِ

فــإذا ظَفِــرْتَ بذي الأمـــانـة والتـــقَى
فــبِـــهِ الـيــديْنِ قــريرِ عينٍ فــاشْـدُدِ

ولا يقف الأمـر عند هذا بل انظر من يُصاحب غـيرك؛ فـقد قـيل: «قُلْ لي من تُصاحِبُ؟ أُخبِرْكَ مَنْ أنتَ».

وقال بعض الحكماء: «اعرفْ أخاكَ بأخيه قَبْلَكَ»[٦].

وقال أعرابي: «اعرف النَّاسَ بإخوانهم»[٧].

---

(١) «روضة العقلاء» (ص١٠١).
(٢) «الأخلاق والسير» (ص٩٢).
(٣) «عيون الأخبار» (١/٢١٨).
(٤) ابْلُ: اختَبِرْ وَجَرِّبْ.
(٥) توسَّمَنْ: تَفَرَّسَنَّ.
(٦) «أدب الدنيا والدين» (ص١٦٥).
(٧) المرجع السابق (ص١٦٥).

وقال الشاعر:

عَنْ المرءِ لا تَسْـألْ وَسَلْ عن قَـرينِهِ
فَكُلُّ قَـرينٍ بالمُقَـارنِ يَقْـتَـدِي
وَصَـاحِبْ أُولي التُّقى تَنَلْ مِنْ تُقَـاهُمُ
ولا تَصْحَبْ الأَرْدَى فـتَـردَى مع الرَّدِي

٣ ـ أن يكون عاقلاً:

ذكر الإمام الماوردي ـ رحمه الله ـ: «أن من الخصال المعتبرة في إخاء الإخوان: «عَقْلٌ موفورٌ يهدي إلى مراشد الأمورِ»[(١)].

٤ ـ أن لا يكون لئيماً:

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «والعاقل لا يؤاخي لئيمًا؛ لأن اللئيم كالحيَّة الصمَّاء، لا يوجد عندها إلا اللدغ والسُّم، ولا يَصِلُ اللئيمُ ولا يؤاخي، إلا عن رَغْبة أو رهبة، والكريم يودُّ الكريم على لَقْيه واحدة[(٢)]، ولو لم يلتقيا بعدها أبدًا»[(٣)].

٥ ـ أن لا يكون حريصاً على الدنيا:

الحريص على الدنيا صُحْبَتُهُ عناء، وفِراقُهُ غناء، ومدارتُهُ طريقٌ للسلامة، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (النجم: ٢٩).

قال العلامة ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «أمر الله رسوله بالإعراض عمَّن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبأ الكريم، فأعرض عن

---

(١) المرجع السابق (ص١٦٧).
(٢) أي: يقع في قلبه حب مصادقته وإن لم يلقه إلا مرة واحدة لكمال خلاله.
(٣) «روضة العقلاء» (ص١٤٤).

العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فـهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعـيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشـهواتها، كيف حصلت حصَّلوها، وبأي طريق سنحت ابتدروها»[١].

٦ ـ أن لا يكون فاسقًا:

والفاسق سارقٌ يُسْرق من دينك قَبْلَ أن يَسْرِقَ من أخلاقك ويتغيَّرُ بتغيُّر الأغراض والأهواء، قال الله ـ سبـحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ (الكهف: ٢٨).

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «العاقل لا يُـصاحب الأشرار؛ لأن صُحْبَةَ صاحِبِ السُّوء قِطْعَةٌ من النَّار، تُعْقِبُ[٢] الضغائن[٣]، لا يستقيم ودُّه، ولا يفي بعهده، وإنَّ مِن سعادة المرء خصالاً أربعًا: أن تكون زوجتـه موافقةً، وولدُهُ أبرارًا، وإخوانه صالحين، وأن يكونَ رزقه في بلده، وكل جليس لا يستفيـد منه المرء خيرًا تكونُ مجالسة الكلب خيرًا من عِـشْرَتِهِ، ومن يَصْحَبْ صاحِبَ السوءِ لا يسلم، كـما أنَّ مَنْ يَدْخُل مداخِلَ السُّوءِ يُتَّهَمُ»[٤].

واهْوَى مِنَ الشُّـبَّـانِ كُلَّ مُـجَنَّبٍ	عن اللَّهْوِ مِـقْـدَامًـا إلى كُلِّ طاعَـةِ
اخـو عِـفَّـةٍ عَنْ كُلِّ شيءٍ مُـحَـرَّمٍ	وذو رَغْـبَـةٍ فـيـمـا يَقُـودُ لِـجَنَّةِ
تَمَـسَّكْ به إنْ تَلْقَـهُ يا أخـا التُّـقَى	تَمَـسُّكَ ذي بُخْلٍ بِتِـبْـرٍ[٥] وفِـضَّـةِ

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص٨٢٠).
(٢) تُعْقِبُ: تُورثُ.
(٣) الضغائن: الأحقاد، مفردها ضغينة.
(٤) «روضة العقلاء» (ص١٠١).
(٥) التِّبْرُ: ما كان من الذهب غير مضروبٍ، أو غير مصنوعٍ، واحده تِبْرَة.

٧ ـ أن لا يكون مبتدعًا:

المبتدع صحبته بلاءٌ خطير، وشرٌّ مستطير؛ لأنه أشدُّ خطرًا وأعظم ضررًا من الفاسق، وأكثر أئمة السلف على التحذير الشديد من صُحْبَةِ المبتدع.

قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ: «لأن يُصاحِبَ ابني فاسقًا شاطرًا ـ أي قاطع طريق ـ سُنِّيًا أحبُّ من أن يَصْحَبَ عابدًا مُبْتدعًا»[١].

وكثيرٌ مِمَّن صاحب أهل البدع لم يسلم من غوائلهم[٢].

قال الذهبي ـ رحمه الله ـ في ترجمة الربوندي: «وكان يلازم الرافضة والملاحدة، فإذا عُوتبَ قال: إنَّما أُريدُ أن أعرفَ أقوالهم، إلى أن صار مُلْحِدًا وحَطَّ[٣] على الدِّين والمِلَّة»[٤].

وقال ـ أيضًا ـ في ترجمة ابن عقيل الحنبلي حيث نقل عنه قوله: «وكان أصحابنا الحنابلة يُريدون مني هجْرَانَ جماعةٍ من العلماء، وكان يَحْرِمُني علمًا نافعًا!».

فعلَّق عليه بقوله: «كانوا يَنْهَوْنَهُ عن مُجالسة المعتزلة ويأبى، حتى وقع في حبائلهم، وتجسَّر على تأويل النُّصوص، نسأل الله السلامة»[٥].

٨ ـ أن يكون من كل واحدٍ منهما مَيْلٌ لصاحبه:

ذكر الإمام الماوردي ـ رحمه الله ـ أن من الخصال المعتبرة في إخاء الإخوان «أن يكون مِنْ كُلِّ واحدٍ منهما ميلٌ لصاحبه، ورغبة في مُؤاخاته»[٦].

وهذه الرغبة تسمى الألفة؛ وتعرف الألفة بأنها اجتماع مع التئام ومحبة»[٧].

---

(١) «الإبانة الصُّغْرى» لابن بطة (ص١٣٢).
(٢) الغوائل: الدواهي والشُّرور، مفردها غائلةٌ.
(٣) حَطَّ: نَزَلَ.
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٩٥).
(٥) المرجع السابق (١٩/ ٤٤٧).
(٦) «أدب الدنيا والدين» (ص١٦٨).
(٧) انظر «موسوعة نضرة النعيم» (٢/ ٤٩٥).

وقيل: هي ميلان القلب إلى المألوف[١].

وما من شك أن الأخوة الصافية لا ينتظم عِقْدُها بين شخصين، إلا أن يكون بين روحيهما تقارب، وفي آدابهما تشابُه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الأرواح جُنُودٌ مُجنَّدةٌ**[٢] **فما تعارف**[٣] **منها ائْتَلَفَ**[٤] **وما تَنَاكَرَ**[٥] **منها اخْتَلَفَ**[٦]»[٧].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قال الخطابي: يُحتمل أن يكون إشارةً إلى معنى التَّشاكل في الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن الخير في الناس يحنُّ إلى شكلِهِ، والشرير نظير ذلك يميلُ إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جُبلت عليها مِنْ خيرٍ وشر، فإذا اتَّفَقَتْ تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت».

قلت ـ أي ابن حجر ـ: «ولا يُنكر عليه أنَّ بعض المتنافرين ربَّما ائتلف؛ لأنه محمولٌ على مبدأ التلاقي، فإنَّه يتعلَّق بأصل الخلق بغير سبب، وأمَّا ثنايا الحال فيكونُ مُكتَسبًا لتجدُّدِ وَصْفٍ يَقْتَضي الألفة بعدَ النَّفرة: كإيمان الكافر وإحسان المسيئ، وقوله: «**جُنُودٌ مجنَّدة**»، أي: أجناسٌ مُجنَّسَةٌ، أو جموعٌ مُجمَّعة».

---

(١) «كشاف اصطلاحات الفنون» (١/ ١١٤)، و«التوقيف على مهمات التعريف» للمناوي (ص٦٠).

(٢) **جُنُودٌ مجنَّدة**: جموع مجتمعة، وأنواعٌ مختلفةٌ، والأرواح جمع رُوحٍ، وهو الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة.

(٣) **تعارف**: توافقت صفاتها، وتناسبت في أخلاقها.

(٤) **ائتلف**: من الألفة، وهي المحبَّة والمودَّة.

(٥) **تناكر**: تنافرت في طبائعها.

(٦) **اختلف**: تباعد.

(٧) رواه البخاري (٣٣٣٦) واللفظ له، ورواه مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «ويُستَفادُ من هذا الحديث أنَّ الإنسان إذا وجد من نفسه نَفْرَةً ممَّن له فضيلةٌ أو صلاحٌ أن يبحث عن المقتضي لذلك، ليسعى في إزالته، حتى يتخلص من الوصف المذموم، وكذلك القول في عكسه»[(١)].

ويؤخذ من هذا أنَّك متى وجدت صُحْبَةً بَيْنَ بخيلٍ وكريمٍ، أو جبان وشجاعٍ، أو غبي وذكي، أو مُهتَدٍ ومُبْتَدِعٍ، أو أحمق وعاقل ـ فاعلم أن الصُّحبة لم تبلغ أن تكون صداقةً بالغةً.

قال مجاهد ـ رحمه الله ـ: «رأى ابن عباس ﷺ رجلاً، فقال: إنَّ هذا لَيُحبني قالوا: وما عِلْمُكَ؟ قال: إني لأُحبُّه، والأرواح جُنُودٌ مُجنَّدةٌ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[(٢)].

لا تسألنَّ المرء عمَّا عنده ... واستملِ ما في قلبه من قلبكا
إن كان بغضًا كان عندك مثلُهُ ... أو كان حبًا فاز منك بحُبِّكا

وكان مالك بن دينار يقول: «لا يتفق اثنان في عِشْرةٍ إلا وفي أحدهما وصفٌ من الآخر، وإنَّ أجْناس الناس كأجْناس الطير، ولا يتفق نوعانِ من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبةٌ».

ورأى يومًا غرابًا مع حمامةٍ، فقال متعجبًا: «اتفقا وليسا من شكلٍ واحدٍ! ثم طارا، فإذا هُما أعْرَجان، فقال: من هاهُنا اتَّفقا»[(٣)].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأنت إذا تأمَّلت الوجودَ لا تكاد تجد اثنين يتحابَّان إلا وبينهما مشاكلة أو اتفاق في فعل، أو حال أو مقصد، فإن تباينت

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٤٢٦) بتصرُّف يسير.
(٢) «روضة العقلاء» (ص١٨٠).
(٣) «بهجة المجالس» للأثريِّ (٢/ ١١٠).

المقاصد، والأوصاف، والأفعال، والطرائق لم يكن هناك إلا النَّفْرَة، والبُعد بين القلوب، ويكفي في هذا الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم، وتَرَاحُمِهم، وتعاطُفِهم كمثلِ الجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منهُ عُضوٌ، تَدَاعى له سَائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»[1] [2].

وقال - رحمه الله -: «إذا كانت المحبة بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكَّنت، ولم يُزلها إلا مانعٌ أقوى منَ السَّبَبِ، وإذا لم تكنُ بالمشاكلة، فإنما هي محبَّةٌ لغرضٍ من الأغراض تزول عند انقضائه وتَضْمَحِلُّ، فمن أحبَّكَ لأمرٍ ولَّى عِنْدَ انقضائِهِ، فداعي المحبَّة وباعثها إن كان غرضًا للمحبِّ لَمْ يكنْ لمحبَّتِهِ بَقَاءٌ»[3].

٢ - قلة التودد للإخوان:

من جفاف المشاعر قلة التودد للإخوان ومن طباع الكريم وسجاياه رعاية هذا الحق لأنه من أسباب بقاء المحبة ودوام الألفة، وللتودد وسائل كثيرة فمنها:

وسائل حفظ المودة:

١ - إظهار المحبة:

قد حث النبي ﷺ على إظهار المحبة القلبية، والعاطفة المكنونة وبين أن ذلك أبقى في الألفة، وأثبت في المودة، فعن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم مرفوعًا قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحبَّ أحدُكم أخاهُ في الله، فَلْيُعْلِمْهُ؛ فإنَّه أبقى في الألفة، وأثبت في المودَّة»[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٦٦) عن النُّعْمَانِ بن بَشيرٍ.

(٢) «روضة المحبِّين» (ص٥٤).

(٣) «روضة المحبين» (ص٥١).

(٤) حسن: أخرجه وكيع في «الزهد» (٣٣٧) بسندٍ صحيحٍ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١١٩٩).

قال الإمام البغوي - رحمه الله -: «ومعنى الإعلام هو الحثُّ على التَّوددُ والتآلف، وذلك أنَّه إذا أخبره استمال قلبه، واجتلب وُدَّه»[١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحبَّ أحدُكم صاحبَهُ فَلْيأْتِهِ في مَنْزِلِهِ، فَلْيُخْبِرْهُ بِأنَّه يُحبُّهُ لله - عزَّ وجلَّ -»[٢].

قال الإمام البغوي - رحمه الله -: «وفيه أنَّه إذا أعلم أنه محبٌّ له، قبل نُصْحَه فيما دلَّهُ عليه من رُشْدِهِ، ولم يَرُدَّ قوله فيما دعاه إليه من صلاحٍ، خفي عليه باطنُهُ»[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مَرَّ رجلٌ بالنبي ﷺ فقال رجلٌ ممن عنده: إنِّي أحبُّ فلانًا هذا لله، فقال النبي ﷺ: «أَعْلَمْتَهُ؟»، قال: لا، قال: «قمْ إليه فَأَعْلِمْهُ»، فقام إليه فأعْلَمَهُ، فقال: أحبَّك الذي أحببتني له، ثم قال: ثُمَّ رجع فسأله النبي ﷺ فأخبره بما قال: فقال النبي ﷺ: «أنْتَ مَعَ مَنْ أحْبَبْتَ ولَكَ ما احْتَسَبْتَ»[٤].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ! والله إني لأحبُّك»، فقال: «أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٥].

---

(١) «شرح السنة» للبغوي (١٣/ ٦٧).

(٢) صحيح: أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧١٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٧).

(٣) «شرح السنة» (١٣/ ٦٧).

(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٥١٢٥)، والحاكم (٤/ ١٧١)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤١٨).

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١١٤٧).

٢ ـ تعاهد الإخوان بالهدية:

للهدية أثر عظيم في كسب القلوب واستجلاب المحبة، والبقاء على المودة وقد حث النبي ﷺ على الإهداء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تهادوا تحابوا»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يَقْبَلُ الهدية، ويثيب عليها[٢]»[٣].

فعليك ـ أخي ـ أن تتعاهد إخوانك بالهدايا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فإن الهدية من أعظم ما يتوسل بها إلى قلوب الإخوان ويستجلب بها محبتهم.

٣ ـ إفشاء السلام:

إفشاء السلام من أعظم أسباب الألفة والمحبة بين الإخوة، كما أنه من أعظم أسباب زوال الشحناء والبغضاء عن قلوبهم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتَّى تُؤمنوا، ولا تُؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أوَلا أدُلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تَحَابَبْتُم؟ أفشُوا السلام بينكم»[٤].

وهو ـ أي السلام ـ حق من حقوق المسلم على أخيه المسلم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ المسلم عَلَى المسلم ستٌ: إذا لقيتَهُ فَسَلِّمْ عليه، وإذا دَعَاكَ فأَجِبْهُ، وإذا استنصحك فانصح لَهُ، وإذا عطسَ فحمد الله فشمِّتْهُ، وإذا مَرِضَ فَعُدْهُ، وإذا مَاتَ فاتَّبِعْهُ»[٥].

---

(١) حسن: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، وحسنه الألباني لشواهده في «صحيح الجامع» (٣٠٠٤)، وفي «إرواء الغليل» (١٦٠١).
(٢) يثيب عليها: أي يُجازي المُهْدي بهديَّة ـ أيضًا ـ.
(٣) رواه البخاري (٢٥٨٥).
(٤) رواه مسلم (٥٤).
(٥) رواه مسلم (٢١٦٢).

وقد ذكر النبي ﷺ أن من البخل البخل بالسلام؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أبخل الناس من بَخِلَ بالسلام، وأعْجَزَ النَّاسِ من عجز عَنِ الدُّعاء»**[١]، فاحرص - أخي - على إفشاء السلام فإنه يزيل العداوة وينهي الخصومة ويسل سخيمة الصدور، ويجمل بك أن ترسل إلى أخيك برسول يحمل إليه سلامك، أو تبعث له بالسلام عبر رسالةٍ أو تتصل به هاتفيًا للسلام عليه، ويتخلَّل ذلك السُّؤال عن حاله، وحال من يعزُّ عليه مع التواصي بالحقِّ والصبر؛ فإن ذلك أدعى لبقاء المودة وتوثيق عُرى الأخوة بينكما.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا عائش، هذا جبريل يُقْرِئُك السلام»**، قالت: قلت: **«وعليه السلام ورحمة الله وبركاته»**[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنّي لأرْجو - إن طال بي عُمرٌ - ان ألْقَى عِيسَى بن مريم عليه السلام فَمَنْ لَقِيَهُ منكم، فَلْيُقْرِئْهُ مِنّي السلام»**[٣].

وأخيرًا إن استطعت ألا يسبقك أحدٌ إلى البدأ بالسلام فافعل، فإن النبي ﷺ يقول: **«وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»**[٤]، وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أولى[٥] الناس بالله من بدأهم بالسلام»**[٦].

---

(١) **صحيح**: أخرجه المنذري في «الترغيب» (٣/ ٤٣٠) واللفظ له، وقال: إسناده جيد قوي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥١٩).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٩)، ومسلم (٢٤٤٧).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٤٩٨) وإسناده صحيح.

(٤) رواه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠).

(٥) **أولى**: أي أحق بالقرب منه والطاعة.

(٦) **حسن**: أخرجه أبو داود (٥١٩٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١١).

٤ ـ المصافحة:

المصافحة من أعظم وسائل المودة والمحبة بين الإخوان ومن الأعمال الصالحات التي تُكَفِّر الذنوب؛ فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن مُسلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ، إلا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أنْ يَتَفَرَّقَا»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أخَاهُ أو صَدِيقَهُ، أيَنْحني لَهُ؟، قال: «لا»، قال: أفَيَلْتَزِمُهُ ويُقَبِّلُهُ؟ قال: «لا»، قال: أيَأخُذُ بِيَدِهِ ويُصافِحُهُ؟ قال: «نَعَمْ»(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «علمني رسول الله ﷺ التشهُّد، وكَفِّي بَيْنَ كفَّيه»(٣).

ومن الأدب إذا صافحك أخوك لا تنزع يدك من يده حتى يكون هو الذي ينزع قبلك.

فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا استقبله الرَّجُل فصافحه لا ينزع يده من يده حتَّى يكون الرجل الذي ينزع، ولا يصرف وجهه عن وجهِهِ حتى يكون الرجل هو يصرِفُهُ، ولم يُرَ مقدمًا ركبتيه بين يدي جليس له»(٤).

والمصافحة تزيد في الود ما مِن ذلك بُد، وقد كانت المصافحة في أصحاب النبي ﷺ؛ فعن قتادة رضي الله عنه قال: قلتُ: لأنسٍ أكانت المصافحة في أصحاب النبي ﷺ قال: «نعم»(٥).

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٥٢١٢)، والترمذي (٢٧٢٧)، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٧٧)، وفي «الصحيحة» (٥٢٥).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٧٢٨)، وحسنه ابن ماجه (٣٧٠٢)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٠).

(٣) رواه البخاري (٦٢٦٥).

(٤) حسن: أخرجه أبو داود (٤٧٩٤)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٨٥).

(٥) رواه البخاري (٦٢٦٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: لما جاء أهل اليمن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد جاءكم أهل اليَمَن، وَهُمْ أوَّلُ مَنْ جَاءَ بالمُصَافحة»[١].

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه: «دخلتُ المسجد، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام إليَّ طَلْحَةُ بن عبد الله يُهَـرْوِلُ حتَّى صافحني وهَنَّأني»[٢]، وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «المصافحة تزيد في الوُدِّ»[٣].

٥ ـ الزيارة:

الزيارة من أعظم وسائل تقوية الصِّلة؛ فهي تحفة النفس للنفس يجد منها الإخوةَ لذَّة وأريحةً وانشراحًا، ومتى كانت الزيارة خالصة لله كانت غنيمة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى، فأَرْصَدَ الله له على مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فلمَّا أتى عليه قال: أَيْنَ تُريدُ؟، قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هَلْ لك من نعمة تَرُبُّها عليه؟، قال: لا، غَيْرَ أنّي أحْبَبْتُهُ في الله، قال: فإنّي رسول الله إليك بأن الله قد أحَبَّكَ كما أحْبَبْتَهُ فيه»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: وَجَبَتْ مَحَبَّتي للمتحابِّين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتباذلين فيَّ، والمتزاورين فيَّ»[٥].

وعن كعب بن عُجْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أُخْبِرُكم برجالكم مِنْ أهْلِ الجنَّة؟، النبي في الجنَّة، والشَّهيدُ في الجنة، والصِّدِّيقُ في الجنة،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢١٣) واللفظ له، وقال الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٣٤٤): صحيح، إلا أن قوله: «وهم أول..» مدرج فيه من قول أنس، «الروض النضير» (١٠٤٥).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٥٦).
(٣) «المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق» (١٨٩).
(٤) رواه مسلم (٢٥٦٧).
(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣١).

والمولودُ في الجنة، والرَّجُلُ يزور أخاهُ في ناحية المِصْرِ في الله في الجنَّة، ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة، الودُودُ العئودُ، التي إذا ظُلِمَتْ قالت: هذه يدي في يدك، لا أذوقُ غمْضًا حتَّى تَرضَى»[١].

قلت: لو لم يكن في الزيارة إلا أنها تنمي المودة والمحبة بين المتحابين لكان في ذلك كفاية؛ فكيف والزائر ينقلب بالأجر العظيم الذي يدل على كرم الله - سبحانه وتعالى - وعظيم جوده، فله الحمد على جميع نعمائه الظاهرة والباطنة فهو أهلٌ للمحامد كلِّها.

يا ربِّ حمدًا ليس غيرُكَ يُحْمَدُ ※ يا مَنْ له كُلُّ الخلائق تَصْمُدُ[٢]

أبواب غيْرِك - ربنا - قدْ أُوصِدَتْ[٣] ※ ورأيتُ بابك واسعًا لا يُوصَدُ

٣ - قلة المواساة:

من جفاف المشاعر بين الإخوان قلة المواساة، وهذا لا يحسن ولا يجمل فالمواساة حق من حقوق الأخوة وهي مع ذلك من أحب الأعمال إلى الله - سبحانه وتعالى -.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ النَّاسِ إلى الله - تعالى - أنْفَعُهُمْ للنَّاسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى الله - عزَّ وجلَّ - سُرُورٌ يُدْخِلُهُ على مسلم، أو يَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أو يقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أو يَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، ولأن أمشي مع أخٍ في حاجَةٍ أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتكفَ في هذا المسجد (يَعْنِي مَسْجِدَ المدينة) شهرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ - ولو شاء أن يُمْضيه أمْضَاهُ - ملأ اللهُ قَلْبَهُ رجاءً يَوْمَ

---

(١) حسن: «الروض النضير» (٤٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع».

(٢) يقال: صَمَدَهُ - من باب نَصَرَ - أي قَصَدَهُ في حوائجه.

(٣) أوصدت: أغْلِقَتْ.

القيامة، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ في حاجةٍ حتَّى تتهيأ له، اثبت اللهُ قَدَمَهُ يوم تَزِلُّ الأقْدَام، وإنَّ سُوءَ الخُلُقِ يُفْسِدُ العَمَلَ، كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَّس عَنْ مُؤمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يوم القيامة، ومَنْ يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّر الله عَلَيْهِ في الدُّنيا والآخرة، ومن سَتَرَ مُسْلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العَبْدِ ما كان العَبْدُ في عَوْنِ أخيه»[٢].

فعلى الأخ أن يواسي إخوانه بحدود ما يستطيع، والمواساة أنواع كثيرة، قال العلامة ابن القيم - رحمه الله -: «المواساة للمؤمنين أنواع: مواساةٌ بالمال، ومواساةٌ بالجاه، ومواساةٌ بالبدنِ والخدمة، ومواساةٌ بالنصيحة والإرشاد، ومواساةٌ بالدُّعاء والاستغفار لهم، ومواساةٌ بالتوجُّع لهم، وعلى قَدْرِ الإيمان تكونُ هذه المواساة، فكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضعفتِ المواساة، وكلما قَوِي قويت، وكان رسول الله ﷺ أعظمَ الناس مواساةً لأصحابِهِ بذلك كله، فلأتباعِهِ من المواساة بحسب اتباعهم له»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال: رأى النبي ﷺ النساءَ والصبيانَ مُقْبلين - قال: حسبت أنه قال من عرس - فقام النبي ﷺ مُمْثِلاً فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي» قالها ثلاث مرار[٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صبي لها، فكلمها رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إليَّ» مرتين[٥].

---

(١) حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/٢٠٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٨/١)، وحسَّن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٩٠٦)، و«صحيح الجامع» (١٧٦).
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦).
(٣) «الفوائد» (ص٢٢٤).
(٤) رواه البخاري (٣٧٨٥)، وأخرجه مسلم (٢٥٠٨).
(٥) رواه البخاري (٣٧٨٦)، ومسلم (٢٥٠٩).

٤ ـ كثرة العتاب:

من جفت مشاعره كثر عتابه، ومن كثر عتابه فقد علم إخوانه أنه لا يتحمل أدنى شيء منهم، فوطن نفسك على قلة العتاب، فمن اللوم أن تعاتب إخوانك على كل صغيرة وكبيرة، كما قيل:

إذا عاتبتني في كل ذنب ** فما فضل الكريم على اللئيم

فعن أنس ﷺ قال: «ما مسستُ ديباجًا ولا حريرًا ألين من كفِّ رسول الله ﷺ ولقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ قط، ولا لشيء فعلته: لِمَ فعلتَ كذا؟، ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلتَ كذا وكذا»[١].

والعتاب غير محمود العاقبة في الغالب، وهناك حالات لا يوفق لها إلا حكيمٌ عليمٌ بسياسة النفوس، فمن الناس من يعتقد أن العتاب ما هو إلا تسفيهٌ له، وهذا كثير من كثير وربما صارت مودته تكلفًا ما من ذلك بد كما قيل:

إذا انا عاتبت الملوك كأنني ** أخطُّ بأقلامي على الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن ** مودَّته طبعًا فصارت تكلفا

ومن الناس من يتقبل العتاب على أنَّه نصيحة سديدة وتربية رشيدة، وهذا قليل من قليل، فإذا وجدت للعتاب موضعًا فعاتب فلعل عتاب من هذا حاله محمود العاقبة كما قيل:

لعل عتابك محمودٌ عواقبُهُ ** فربَّما صَحَّتِ الأجْسَامُ بالعللِ

ويتأكد العتاب حين يجد الأخ على أخيه في نفسه، ويكتم السبب، ويظلُّ الأخ متألمًا، في حين تظلُّ لغةُ العيون تَهْدِمُ بنيان الأُخُوَّة.

قال أبو الدرداء: «عتابُ الأخِ خيرٌ من فقده»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٠٩).   (٢) «عيون الأخبار» (٣/ ٣٤).

وقال الأحنف بن قيس: «العتاب مفتاحُ التَّعالي، والعتابُ خيرٌ من الحِقْد»[١].

ولقد أجاد من قال وأحسن:

إن العتاب صقال كل مودة ⋆ صدئت ومغمد كل حقد مصلتِ

وهو المسيح يميت كل سخيمة ⋆ حييت ويحي كل ودٍّ ميتِ

ومن درر الإمام الماوردي ـ رحمه الله ـ: «إنَّ كثرة العتاب سبب للقطيعة، واطراح جميعه دليلٌ على قلَّة الاكتراث بأمر الصديق، وقد قيل: علَّةُ المعاداة قلَّة المبالاة، بل تتوسط حالتا تركه وعتابه، فيتسامحُ بالمتاركة، ويستصلح بالمعاتبة، فإنَّ المسامحة والاستصلاح إذا اجتمعا لم يلبث معهما نُفُورٌ، ولم يبقَ معهما وجدٌ[٢]، وقد قال بعض الحكماء: لا تكثرنَّ معاتبة إخوانك؛ فيهون له عليهم سُخْطُكَ»[٣].

٥ ـ إذاعة السر:

من جفاف المشاعر إذاعة أسرار الإخوان، والرجل النبيل يحفظ أسرار إخوانه ويتسع لذلك صدره كما قيل: «قلوب الأحرار قبور الأسرار»، بل إنه ليحفظ أسرار إخوانه، حتَّى ولو تصرم حبل المودَّة بينهما، كما قيل:

ليس الكريم الذي إذا زال صاحبُهُ ⋆ بثَّ الذي كان من أسْرارِهِ علما

بَلِ الكريمُ الذي تبقَى مَوَدَّتُهُ ⋆ ويحفظ السِّرَّ إنْ صافَى وإن صرما

وقد حث النبي ﷺ على حفظ الأسرار وعدم إذاعتها، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حدَّث الرَّجُل بالحديث، ثُمَّ التفت، فهو أمانة»[٤] فقوله «ثُمَّ التفت»، أي: إن التفاته تقدم مقام احفظ عني، وذلك لأن أخاك إذا أحبك ووثق بك لا يخفي عنك أحواله وتصرفاته، ولا يتحفظ وهو يحدثك.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٩٤).   (٢) الوجد: الحزن.

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص١٧٨).

(٤) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩)، وأحمد (٣/ ٣٢٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٨٦)، و«الصحيحة» (١٠٩٠).

جفاف المشاعر في المجالس

جفاف المشاعر في المجالس كثيرة؛ فهي أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وسوف أذكر طرفًا منها، وبالمثال يتضح المقال، فمنها:

صور من جفاف المشاعر في المجالس:

١ ـ قلة التفسح في المجالس:

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المجادلة: ١١).

قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «هذا أدب من الله لعباده إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم، أو بعض القادمين للتفسح له في المجلس ـ فإن من الأدب أن يفسحوا له؛ تحصيلاً لهذا المقصود، وليس ذلك بضار للفاسح شيئًا، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح لأخيه فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه»[(١)].

وحث النبي ﷺ على التفسح في المجالس وبين أن خير المجالس أوسعها؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تفسَّحُوا وتوسَّعُوا»[(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خَيْرُ المَجَالِسِ أوسَعُهَا»[(٣)].

---

(١) تفسير ابن سعدي (ص٨٤٦).

(٢) رواه البخاري (٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٠٣٥).

ومن الناس من يأخذ لنفسه مساحة واسعة في المجلس وربما ضنَّ على أخيه من أن يجلس بجانبه، بل أن بعض الناس يكون في المسجد فيجد فرجة في الصف فيبخل به على أخيه فما الظن بمن هذا حاله.

فيا أخي وسع لأخيك يوسع الله عليك ولو لم يكن من التوسعة إلى أن يسعك قلب أخيك لكان حري بك أن توسع له في المجلس[1]، فكيف وفيه من خير الدنيا والآخرة، فانظر كيف يكون حال أخيك لو وسعت له، ووجهك يذوب رقة وخلقًا وكلمات الترحاب تفوح عطرًا وأريجًا؛ أي منَّة تمن بها على جليسك بعد هذه؟!

٢ - إقامة الرجل من مجلسه والجلوس مكانه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه**»[2].

قال ابن حجر - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: «قال - يعني ابن أبي جمرة - : والحكمة من هذا النهي منع استنقاص حق المسلم المقتضي للضغائن، والحث على التواضع المقتضي للمودة؛ وأيضًا فالناس في المباح كلهم سواء، فمن سبق إلى شيءٍ استحقه، ومن استحق شيئًا فأُخِذ منه بغير حق فهو غصب، والغصب حرام، فعلى هذا يكون بعض ذلك على سبيل الكراهة، وبعضه على سبيل التحريم»[3].

---

(١) لا يقتصر التفسُّح على المجالس، بل يدخل في ذلك التفسُّح في الطريق، وسواء كنت راكبًا أو ماشيًا وربما كنت في سيارة والطريق لا تسمح لمرور سيارتين فتفسح لأخيك، فيلوح لك بالتحية شاكرًا تعاونك، وربما كنت في سيارتك على الخط فتأتي سيارة تسابق أختها فتفسح لها، وربما كان هناك مار يريد عبور الشارع فتوقف سيارتك ريثما يمر.

(٢) رواه البخاري (٦٢٦٩)، ومسلم (٢١٧٧).

(٣) «فتح الباري» (١٢/ ٣٣٥).

وبعض الناس نضبت مشاعرهم فلا يلتفتون إلى هذا الأدب النبوي، وهذا من الخلل الفادح والتقصير الكبير، فعلى المرء إذا حدثته نفسه أن يقيم أحدًا من مجلسه ليجلس فيه غيره، أن يضع نفسه مكانه فحينئذٍ يلوح له وجه تعسفه ونضوب مشاعره.

٣ ـ التقدم بحضرة الناس في المجالس:

عن جابر بن سمرة ﷺ قال: «كنَّا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيثُ ينتهي»[١].

هكذا كان الصحابة إذا جاء أحدهم إلى المجلس لم يتكلف الجلوس في المقدمة أو مزاحمة ومضايقة الجالسين بل كانوا يجلسون حيثُ ينتهي بهم المجالس وهذا من كمال أدبهم.

وبعض الناس عندهم نضوب في مشاعرهم فلا يهمهم سوى أنفسهم وربما جلسوا في مكان أُعدَّ للأكابر مما يعرضهم للتنقص والازدراء بل ربما أقيموا من مكانهم إذا حضر من أُعِدَّ لهم المكان.

قال الأحنف بن قيس: «لأن أُدْعى من بعد أحبُّ إليَّ من أن أُقْصى عن قرب»[٢].

وقال الأحنف ـ أيضًا ـ: «ما جلستُ مجلسًا قط أخاف أن أقام منه لغيري»[٣].

وقال ابن المقفع: «إن استطعت أن تضع نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام، ومقال، ورأي، وفعل، فافعل؛ فإنَّ رَفْعَ الناسِ إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبهم إياك إلى المجلس الذي تباعدت منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تُعَظِّمْ، وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تُزَيِّن، هو الجمال»[٤].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨٢٥)، وصححه الألباني.

(٢) «بهجة المجالس» (١/ ٤٧).

(٣) «بهجة المجالس» (١/ ٤٧).

(٤) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٥١).

٤ ـ الجلوس في مكان الرجل إذا قام لحاجة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع فهو أحق به**»[١].

فمن الأدب والذوق والمروءة إذا دخلت إلى مجلسٍ فلا تجلس في مجلسٍ هو لغيرك حفاظًا على مشاعر أخيك وحتَّى لا تتهم بالأثرة وجفاف المشاعر.

٥ ـ التفريق بين اثنين متجالسين دون إذنهما:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يحل للرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما**»[٢].

هذا الحديث أدب من أدب المجالس وفيه الحث على مراعاة مشاعر الآخرين، وربما كان ذلك سببًا في إيغار الصدور لأن المتجالسين قد يكون بينهما حديث متصلٌ.

وقد يكون بينهما محبة ومودة وجريان سر وأمانة وربما جمع بينهما ذلك المجلس بعد فراق فيشق عليهما التفريق بجلوسه بينهما.

٦ ـ تناجي الاثنين دون الواحد:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتَّى تختلطوا بالناس؛ أجل أن ذلك يحزنه**»[٣].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قال الخطابي: وإنما قال: يحزنه؛ لأنه قد يتوهم أن نجواهما إنما هي لسوء رأيهما فيه، أو لدسيسة غائلة له»[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢١٧٩).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨٤٥)، والترمذي (٢٧٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٣٢).

(٣) رواه البخاري (٦٢٩٠).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ٨٦).

فانظر - أخي - كيف حافظ الإسلام على مشاعر الآخرين حتى في الحديث المكتوم؛ فحري بالعاقل أن يحافظ على مشاعر إخوانه للإبقاء على المودة والألفة، فإن المرء متى جفت مشاعره قد لا تنفع معه النصائح والتأديبات إلا بعد مجاهدة ومعاناة في نفسه حتى يسلس قيادها فتنفع معه التأديبات التي لا غنى له عنها.

٧ - إطالة المكث في بيت المضيف:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: «لمَّا تزوج النبي ﷺ زينب، دخَلَ القومُ فطعموا، ثُمَّ جلسوا يتحدثون فأخذ كأنَّه يتهيَّأ للقيام فَلَمْ يقوموا، فلمَّا رأى ذلك قام، فلمَّا قام قام مَنْ قَامَ من القوم وقعد بقيَّة القوم، وإنَّ النبي ﷺ جاء ليَدْخُلَ، فإذا القومُ جلوسٌ، ثُمَّ إنَّهم قاموا فانطلقوا»[1].

قال ابن بطال - رحمه الله -: «والحكمة من هذا الأدب ألا يؤذي المأذون له أصحاب المنزل بإطالة الجلوس عندهم ويمنعهم من التصرف في حوائجهم»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٢٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٤٢٨).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٩٠).

الفهرس

الموضـــوع صفحة

الموضـــوع | صفحة

الموضـــوع — صفحة

الموضــوع صفحة

الموضـــوع | صفحة

